طاهر الزهراني

أطفال السبيل



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

طاهـر الزهـرانـي

أطفال السبيـل

روايـــة



أطفال السبيل

Street Children

Novel

Taher Al-Zahrani

First Published in February 2013

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyes-books.com
www.elrayyesbooks.com

ISBN 978 - 9953 - 21 - 563 -1

الطبعة الأولى: شباط (فبراير) ٢٠١٣

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: هوساك كومبيوتر برس

المحتويات

إلى أحمد،

الذي يرتع الآن في ظلماتٍ ثلاثٍ،

بعد عشرٍ عجاف.

«إِنْ لَمْ تَعُودوا مِثْلَ الأَطْفال،
لا تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّماواتِ»
متى ١٨/ ٣

لقد فاتني أن أكون ملاكاً.

محمد شكري

١٥

أحلامنا سنتركها مع امرأة.

حكمة فرنسية

تحليق

الغراب الأعصم الذي ألقيت في رأسه الرعونة من بعد الطوفان، ينفض جناحيه النتنين في كوّة يعلوها الغبار في قصر خزام المهجور، يطوف فوق سماء جدة كعادته كل صباح، تأسره التفاصيل، تفاصيل المدينة الموبوءة، الشوارع القذرة، مياه المجاري الطافحة، الأحياء الشعبية المهملة.

ورغم بؤس المدينة؛ إلّا أنها تؤوي النازحين من القرى، والباحثين عن الرزق، والكثير من القادمين الذين خلعوا أرديتهم البيضاء بعد زيارة الأماكن المقدسة، وقرروا المكوث في المدينة التي تكتنف الجميع،

أعراب من الصحراء،

هنود سمر،

أفارقة سود،

فطس من جاوة،

لحى من بخارة.

الغراب الأعصم المحلّق يرى في جولته كل ما يشبع فضول نظره، وبعد أن يتفقّد أحوال المدينة والبشر، يتوجّه إلى مكانه المألوف.

يشق سماء «السبيل»، ينظر إلى البيوت العشوائية المتعاشرة، يبحث عن أي شيء يلتقطه ويلفت انتباه ذهنه المتّقد.

يلكزه الجوع أثناء تحليقه، ليعيد تحويل القصد إلى البحث عن الرزق، ثم يتّجه إلى سوق البخارية.

وفي ذلك الشارع يرى السجاد، والجرار، والتنانير، ينظر إلى الفخار والحديد، يتأمّل بريق صلعة الأفغاني الذي يرصُّ السجاد أمام محلّه، يمسح أطراف الشارع الضّيق ليجد ما يسد به جوعه، فلا يجد أثراً، لا بقايا طعام ولا قطاً مدهوساً، ولا خبزاً عفناً مُخضرّاً!

التحديق من علو لا يجعله يفوّت أمراً ذا بال؛ فكيف بلقمة تسد الفراغ الذي في الأمعاء، يحرف جناحيه إلى سوق البراميل، لا يجد شيئاً سوى البراميل الزرق المتكدّسة، البراميل التي يبتاعها الفقراء ليضمنوا ماءً إذا انقطع، فالبحر الذي يجاورهم لن يشفع لهم إذا أُغلقت المحابس عنهم عمداً!

وفوق أحد البراميل أخذ يتسلّى بالنقر ثم يتوقف، ليرفع رأسه ليرى التفاصيل، يحدّق في بسطة عجوز أفريقية، تبيع الحلوى واللوز والدمى للأطفال، يحدّق في سطل التمر الهندي السائل الذي بجوارها، السطل المصمت بحرص.

وأمام ساقَي العجوز السوداء يهبط!

يحدّق في القذر الملتصق بأخمص العجوز، ثم يوهمها أنه لا يريد منها رزقاً، وخلايا مخّه تأمر العصب بخطف ما تيسر، وما إن ير إغماضة العجوز حتى يقترب من صحنها؛ لتنهال عليه لسعة من خيزرانتها الرفيعة.

ينكص خائباً فيزداد نعيقه، يستمر في التحليق، وعلى هوائي متهالك في سوق «اليمنة» يهبط، يقلّب عينيه هنا وهناك، علّه يحظى بقطعة لحم نتنة، أو رأس دجاجة، أو فأر مقتول، أو أي شيء يسد جوعه من إحدى المزابل.

ينظر في السوق إلى البشر المحتشدين، الذين يصدرون أزيزاً كأزيز النحل، مشغولين بزبائنهم وسلعهم، أناس يبيعون السمك واللقيمات، نساء يمنيات يبعن الأرغفة، والخمير الأحمر، واللحوح، والحلبة، آخرون يبيعون الخضار والفواكه، هنود يبيعون الرؤوس المندية.

قفز على إحدى الشُرف عندما رأى أحدهم يدفع عربة مغطاة بخيش مبلل، يتربص به علّه ينال شيئاً تحت الغطاء الخشن،

لكنه يخيب ظنه عندما يُكشف عن نباتات عطرية أتت من الجنوب، صاحبها بدأ ينشر الريحان والكادي والبعيثران والشيح على الرصيف، فيعجُّ المكان بشذا الطبيعة، فيؤذي الغراب الذي فتنته الجيف من أيام نوح، فينعق كدراً ثم يطير فوق البيوت المتحاشرة بالمناكب، ينظر في الأزقّة والأسطح علّه ينال بيضاً، أو فراخ حمام، فيرتد بصره خاسئاً عندما يرى الخردة والزنك، وحبال الغسيل، ينظر في الشوارع الترابية الضيّقة فيجد أطفالاً يتبولون ويلعبون، بعضهم عراة، وبعضهم يرتدون قمصاناً طويلة هي رداؤهم والأُزُر، ينظر في الأحواش التي جُعلت نشيراً للخبز حتى ييبس، ومستودعاً للخمر حتى يستوي على سوقه، ، أحواش جُعلت زرائب للغنم والبقر والدجاج، وأحواش أخرى لبيع الدراجات النارية.

نساء يغزلن، وعجائز يبعن الـ «قورو» عند عتبات الدور.

لكنّ رائحة غريبة تأسره، فيسري من علوه الشاهق لها، فتقوى الرائحة كلّما شقَّ سماء ركام الدور والبشر، ليخرَّ من السماء صوب بيت شعبي، فوق سطحه خردٌ وصندقة حمام، حوشه على شكل مثلث مكسور الرأس، ينتهي بباب خشبي، أمام الباب شجرة نيم عتيقة.

استقر أعلى الشجرة، ينظر في الحوش المبلل بغسيل مقدس، في قلب الحوش نعش وماء، ورائحة موت تنبعث من تحت البياض، رائحة شهية يفسدها كافور لعين وسدر، وعلى يد

النعش وقع، يعجبه البياض إذا كان كفناً، وقبل أن ينقر الجسد القابع تحت البياض دهمه سواد البشر، ليطرده من فوق الجثمان، ليرجع إلى شجرة النيم كدراً. .

وهناك أخذ ينعق. .

ينعق. .

ينعق. .

١

أطيط العرش

كنت أنظر إلى تلك الأم، إلى الأطفال الذين بين يديها، أنظر إلى تفاصيل الأشياء بعدما أزالوا تلك الجثة، وبعدما خلا البيت من المعزّين قامت الأم بتنظيف الحوش، زاوية صغيرة فقط اجتمع فيها الماء الذي باشر جسد الأب، بقايا الماء الذي في الزاوية مشوب بدم، كان أصغرهم قد شاهد ذلك الماء الكدر، الطفل أخذ إسفنجة صغيرة وبدأ بجمع الماء في قارورة، كلّما أشربت الإسفنجة ماءً عصرها في قارورته الصغيرة، حتى إذا بلغت الحلقوم أحكمها!

كنت أكتفي بالنظر بعين واحدة إلى تلك التفاصيل الصغيرة.

كانت الأم قد فرشت سجادتها لصلاة العتمة، السجادة مهترئة من كثرة السجود!

بعدما سكبت رُكيعاتها على تلك السجادة، أخذت تنظر في

سقف الله، تتمتم بكلمات للسماء، ثم التفتت إلى أطفالها، نادت الصغير صاحب القارورة.

ـ طلو. . طلال حبيبي تعال.

أتاها الصغير يركض، أتاها مُخلّفاً وراءه آثار أقدام رطبة على الطبطاب، حتى استقر على فخذ أمه، ثم جثت الطفلة على فخذها الأخري، أمّا الكبير والذي خرج من صندقة الحمَام، وأخذ ينزل عبر فتحات صغيرة في الجدار، فقد جثا أمامها منكّساً رأسه، ثم أخذ يهتز أمامها ويبكي، جمعت رؤوسهم في حجرها، كانت تنظر إلى فراخها بوجه أصفر بائس، تنظر بعينين منفوختين فقداً، ثم تكلّمت بحديث برزخي بين الوعي والهذيان.

«سمعت الليلة جلبة في السماء، كان ذلك الصوت هو أطيط عرش الرحمن، وما اعتراه ذلك إلّا لموت والدكم!».

«أبنائي أنتم ركني الشديد بعد الله، أمّا أنتم فلا ملجأ لكم إلّا هو، يكفي حزني الذي أحمله فوق كاهلي، توجّهوا بأحزانكم وشكواكم إليه».

مسحت على رؤوس الصغار ثم بدأت في نشيج طويل.

٢

بقايا إرث

من تلك الليلة لم أعد أشتكي لبشر، ولا أبث لهم حزني، هناك جهة تؤوي كل ذلك، إنها السماء!

مرت الأيام ولم نعد نتحدّث عن أبي بعد تلك الليلة، لأن مجرد إثارة الحديث، يترك الحزن يجوس في الدار والأبدان، حتى تأتي العوارض وتزيح الحزن وكثرة الأسئلة.

أبي سائق التاكسي الذي قُتل أثناء حادثة احتلال الحرم، لم نعرف عن موته أيَّ تفاصيل؛ سوى تلك الرصاصة التي استقرت في جمجمته، لنأخذه بعد ذلك من ثلاجة الموتى، لنحمله إلى البيت ونغسله، ثم ندفنه، وندفن معه كل التفاصيل، لم يتبقَ منه إلّا قارورة جمعت فيها بقايا غسله الأخير، وبضعة كتب.

أما القارورة فقد أخذتها أنا وناجي ذات يوم، وذهبنا بها إلى البحر، سكبها ناجي في البحر، وذكر أن أبانا من الآن فصاعداً هو البحر!

أمّا الكُتب فهي موزّعة في صناديق، وعلى رف يتيم، وفي محراب أمي الذي تصلّي فيه.

في محرابها كتابٌ أصفر قديمٌ، يجاور مصحفها، كَسَتْ كعبه مؤخراً بقطعة قماش ثقيل حتى لا تتناثر أوراقه.

أتصفّحه على حين غرّة، لا أجد فيه سوى الصفوف، سطور صغيرة بعضها تحت بعض، لم يكن به تصاوير تدل على محتواه، كانت أوراقه تتكسر في يدي كورق خريف ضربته الشمس دهراً، وضعته في مكانه، ثم تراجعت . .

في الجدار رفٌّ واحدٌ من خشب مصقول، عليه بعض الكتب القديمة، لم يكن هناك شيء يربطني بأبي بعد موته إلّا تلك الأسفار التي باشرتها يده ذات زمن.

كنت في شوق وتلهف لمعرفة سر ذلك الكتاب الذي جلبته أمي لمحرابها، استجديت ناجي أن يحدثني عنه، لكنه لم يسعف شوقي إلّا أنه يحوي كثيراً من التخاريف والأمور الغيبية!

لقد خذلني ناجي، لم يقرأ لي سطراً واحداً يبلّ ريق المعرفة لديّ، أنا الذي للتوِّ بدأت أحاول فك طلاسم الحروف.

أيام قليلة تلك التي تفصلني عن التعلم، المدرسة هي المكان الوحيد الذي قد يجود عليَّ بإعطائي آلة فك طلاسم الكتب، أريد أن أدخل عالم التخاريف كما يقول ناجي.

أمي قبل أن تعلّمنا الحروف، كانت تقرر أن المعرفة الحقيقة هي معرفة الله، لهذا علّمتنا قبل الحروف فن الدعاء!

كنت أردد خلف أمي:

إلهي أقف هنا كأول حرف في الأبجدية

اسكب في قلبي حبَّ المعرفة ورسم الحروف

درٌّ عليَّ نقاط فضائلك العظمى

اجعل الدنيا في عيني صفحة بيضاء

اجعل أصابعي أقلاماً ملّونة

ولساني يسكب حبراً أزرق

أنت ملاذي الوحيد

ورُكْني الشديد .

٣

فك الطلاسم

أووه.. كم هو مزعجٌ هذا الطفل!

أشاهده من فوق شجرة النيم، تُلقّنه أمه الحروف، وأنا أشوّش عليه بنعيقي، لكنه يكتفي هو أيضاً بالنعيق!

بين يدي أمه، تعلِّمه كل يوم حرفاً، يحفظه، يرسمه، يمسك قلم الرصاص بقوة فينكسر رأسه، تضحك الأم ثم تبريه، هي لا تؤمن بتقعيد الكتابة، وحفظ الحروف مرتبة، كل يوم يأخذون حرفاً كيفما اتفق، وأعجبهم شكله، لا تأمره بالكتابة بطريقة معينة، كانت تحثّه على أن يحاكي الحرف بأي هيئة كانت، فكان ينقشه نقشاً!

يبدو أن والدته لم تجد دراهمَ لتدخله الروضة، رغم تأخّره سنة عن أقرانه، هي مَن قامت بدور المعلم الأول، عبثا بالحروف، كُسرت مئات الأقلام، كتب على أرضية الحوش بالفحم، الأرض كانت السبورة الأولى.

ثم كانت الكتابة فوق الكتابة، أخذ الكتب القديمة من الجيران، الصيحات التي تصدر من الحنجرة رغبة بالتعلّم.

البيت الذي يصدح طفله بـ«أبجد هوّز حطّي كلمن» يشكل مصدر إزعاج لي ـ أنا المزعج الأسود ـ وللجيران الذين تتكئ بيوتهم على بيته.

مربعات الـ (بربر) التي رسمتها الأم، ووضعت في كل مربع حرفاً، لقد أنّت حروفه من أخمص طفل كثير القفزات.

أمه،

الحروف،

أقلام الرصاص المكسورة،

الكتب المتهرئة،

الصيحات،

مربعات البربر،

عرق القفزات السريعة والمتقنة.

يلهث من التعلم!

كل ذلك ربطه بالحرف، الأحرف التي يلتقي بها دوماً في الأماكن، وعلى وجوه الكتب المدرسية المستهلكة، في أوراق

الجرائد، في علب المرطبات، في اللوحات الإعلانية، في الشعارات، على واجهات المنازل، في صناديق البضائع، على جدران الحارة، في بقالتهم الوحيدة، على شاشة التلفاز القديم بالمقهى، في قصص الأطفال، في كتب والده الصفراء القديمة، في الحوش يقلّب جزء البغدادية، يقلّب الكتب القديمة الممزّقة، لقد صارت الأبجدية أغنية، وصارت المدرسة حلماً!

٤

مغارات التلقين

سارت معي أمي في أول يوم لي في المدرسة، أخذت تُوصيني بأن أجتنب العبث، أبتعد عن الطلبة الذين يملكون شوارب طويلة ودبابات حمراء مزعجة.

نقدتني ريالين، ثم دعتني أمي من عند الباب، قبّلتني، ابتسمتُ لها رغم الهلع الذي بداخلي من العالم الذي سوف أدخله، نظرت إليَّ وصرفت وجهها عني مجتهدة أن لا تخرج دمعة أمامي.

في بهو المدرسة الواسع كل طفل صنو أبيه، الأطفال يُسقون من نبع الأبوة، ويفضلون عليَّ بركنهم الشديد، يُقبّل الآباء أبناءهم، يمسحون دموعهم، يعطونهم لعبة، أو حلوى، يصحبونهم إلى فصولهم الدراسية، ورغم القُبل الموزّعة، ورغم الوحشة التي انتابتني إلّا أنني لم أرضخ لتوسلات الدمع، فقد وعدت المعلمة الأولى أن لا دموع، وأن لا شوق يغزو كياني

الصغير، وأن لا شفقة أتدثر بها لأجلب عناية البشر.

في الفصل تسلّمت كتاب القراءة والكتابة، نظيفاً جديداً، ليست عليه بقايا طفل، سطوره شاغرة، تنتظر قلم الرصاص الذي معي، لم يُدوّن عليه اسم قبلي، ولن يُدوّن عليه اسم بعدي، كل العوالم التي بداخله بكرٌ بيضاء، لم يطمثها إنس ولا جان، لم تلوثها بقايا الأطعمة، ولم ينسكب عليها شراب مختلف ألوانه، لم أفرح بشيء قبله، ولن أفرح بشيء بعده.

ها هي الحروف التي تأتي في الأحلام قريبة، الكتاب أستنشقه بعمق، ألعق صفحاته، أفض بكارته بقلم الرصاص، وأدوّن عليه اسمي «طلال».

طلب المدرس أن ينهض طالب ليقرأ الحروف، لم يرفع أي طالب يده رغم وجود آبائهم عند فوهة الغرفة الصغيرة!

كان أحد الآباء يشير لأحد أبنائه أن ينهض ويقرأ الحروف، لكنه لم يفعل، فرفعت يدي كصارية، وأخذت أصدح بالحروف منتشياً بلا أب، أصدح بها.

أتذكّر أمي وهي تحدّق بي عندما كانت تعلّمني الحروف.

أتذكّرها عندما كانت تبري الأقلام.

عندما يتمعّر وجهها فجأة وتبكي.

ترسم مربعات البربر في الحوش.

تسجل على الدفتر اسمي كاملاً حتى لا يصبو عليه أحد.

أتذكّرها عندما ذهبت إلى البقال تستدين منه مصروفي لذلك اليوم.

أتذكرها وهي معي يمسح ذيل عباءتها السوداء أزقة «السبيل» الملوّثة لتوصلني إلى بوابة المدرسة.

أصدح بالحروف، وتنتابني مشاعر ملوّنة سود وحمر قانية.

أصدح بها دون ركن شديد ينظر إليَّ في تلك اللحظة.

وبكيت.

استسلمت لنوبة بكاء طويلة قبل أن أكمل حروف الأبجدية، نكثت بوعد أمي، وأخبرتها، فنكثت دموعها حتى المغيب.

٥

حبل ينحلّ!

لم تكن المدرسة حلماً جميلاً كما توقعت!

هم في النهاية مجرد زمرة من الصبية في غرف إسمنتية يُلقّنون بما تيسّر من الأحرف والآي الحكيم، ثم يطلقونهم في كبد الظهيرة.

هناك فسحة لاستنشاق الهواء، والتهام السندوتشات العفنة، نتجرّع بعدها شراباً لا نكاد نسيغه، ثم نتمشّى في فناء المدرسة ما تبقى لنا من فضلة الزمن.

خطواتي الصغيرة توقفت ذات يوم في قلب الفناء. توقفت بذعر. لأن شريط الجزمة انحلّ، الجزمة اليمنى تحديداً!

أيّ ورطة هذه التي لم تكن في البال إطلاقاً! أيّ كارثة حلّت عليَّ ذلك اليوم! انحلّ شريط الجزمة، وأصبحت الفردة كأنها تلهث بلسانين منفلتين!

وأمي لم تعلّمني كيف أعقد هذه الحبال إذا انحلت.

قرع الجرس!

انتهت الفسحة!

تذكّرت أمي عندما قالت لي ذات مرة: عليك بالسماء في الشدائد!

كنت أنظر إلى السماء، أغمض عيني، أتخيل العرش العظيم والملائكة من حوله، وتسبيحات البشر ترفرف دون فتور، وفي الوقت نفسه أنحدر إلى السماء الدنيا، وفي نقطة صغيرة على ظهر الكرة الأرضية، أنظر إلى ذات البقعة التي أقف بها، إلى مقامي، وجرس الفسحة يقرع القرعة الأخيرة، وقد تلاشى الجميع، رجعوا إلى خلاياهم كالنحل، وأنا واقف في تلك البقعة كمسمار غُرس في لوح صلد!

مغمض العينين، أبتهل، عاصراً كفيَّ الصغيرتين اللزجتين بعرق خفيف، أشعر بحريق في عينيّ، وأنفي يهتز لينثر فوح بكاء.

تدّخل المَلَك!

جثا بقربي برهة من الوقت، ثم نهض!

كان يمسح على رأسي ويضحك، ثم دهشت عندما رأيت

الشريط المعقود!

كان ملاكاً قطعاً، ليس بشراً!

ذلك الشاب الرائع الذي جعلني أحترق لرد الجميل، لأعيش وأنا ممتنّ له السنوات ذوات العدد.

ذهبت إلى المنزل لأخبر أمي الحكاية بالتفصيل، ألومها تارة؛ لأنها لم تعلّمني ربط الأشرطة، وأنتشي بفعل الملاك تارة أخرى!

أخذتني في حضنها لتقرر أن ذلك الملاك لن نوفيه حقه مهما فعلنا، وتشكر الله بأن جعل الملائكة مسخَّرة لنا.

وعلَّمتني أمي عصر ذلك اليوم كيف أعقد شريط الجزمة على هيئة وردة.

٦

إنجيل أصفر

لم يعد الشارع مقصداً منذ أن عرفت الحرف، أقرأ كل ما يقع تحت يدي، ناسب عمري أو لم يناسبه، كل الكتب أنظر إليها، أبحر مع حروفها؛ حتى جاء ذلك اليوم الذي تطاولت فيه، حين أخذت ذلك الكتاب الذي بجوار مصحف أمي.

مسحت الغبار عن الكتاب، فتحته، وبقراءتي المتقطعة كان أول ما وقعت عيني عليه قوله:

روى.. الإمام.. أحمد.. في.. مسنده.. عن.. عامر.. العقيلي.. رضي الله عنه.. أنه قال:

قلت.. يا رسول الله:

أين..كان ربنا.. قبل أن.. يخلق السموات والأرض؟

قال:

«كان في غمام

فوقه هواء

وتحته هواء

ثم خلق عرشه . . على الماء»

ثم كانت رحلتي مع السطور وبدء الخليقة، ذلك المشهد السينمائي الفريد الذي صوّره لنا الكتاب عن الله، وعن العرش، والقدر، والخلق، وحكاية آدم والبشرية.

ثم ماذا فعلنا في الأرض؟!

كنت أكتشف حكايتي أنا؛ حكايتنا نحن البشر، كان ذلك الكتاب يجاوب عن كل سؤال دار في جمجمتي الصغيرة عن الله وعن العالم!

٧

قابيل يعود

أجدادي ما زالوا يتذكرون الغمامة البيضاء التي أشرفت على قربان قابيل، ثم أعرضت عنه ومالت إلى قربان أخيه هابيل، فاحتملته وصعدت به إلى السماء!

قال قابيل لأخيه: لا أدع لك أختي الحسناء، وما أنا بآخذ أختك القبيحة! بقي قابيل متحيّراً كيف يقتل هابيل، فأتاه إبليس على صورة بعض إخوانه، فأخذ حجرين من الأرض وضرب أحدهما بالآخر، فانفلق الحجر نصفين وقابيل ينظر، فنهض من وقته وأتى إلى أخيه هابيل فوجده نائماً، فعمد قابيل إلى صخرة وألقاها على رأس أخيه فقتله!

فبقي متحيّراً كيف يصنع به؟

فوضعه في جراب، فحمله على ظهره وطاف به الأرض، وكانت السباع والطيور تحوم حوله، حتى حضر أحد آبائي الأُول ليعلِّم البشر سنّة دفن الموتى، فقتل أحد الأجداد غراباً

مجرماً، فحفر حفرة ورمى فيها الغراب المقتول، ورد عليه التراب.

فقال قابيل: يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب!

ها هو المشهد يتكرر، وأنا أحلِّق في سماء «السبيل»، أخٌ يطارد شقيقه في أزقة السبيل، يحمل مسدساً في يد، وفي اليد الأخرى سكيناً!

المطارَد يصرخ في الثلث الأخير من الليل الأحمر، يستجدي أحياءً في قبورهم، لكن لم يُبعث بعد من ينُجده، يلهث، يصرخ، لكنه لم يجد مَن يمد له حبلاً للحياة، والصوت المرعب يأمره أن يتوقف، لكنه لا يفعل. يركض، يلهث في الأزقة، ثم تستقر رصاصة في فخذه اليمنى، يسقط أمام جُدر، يحاول أن يتشبّث بنافذة صغيرة، لكن الكائن الذي لا يعرف الرحمة يلجمه بسكينه، وهيهات للمسكين أن يجد عُرف الرحمة.

السكين ترتفع عالياً ثم تغرس في الجسد، في جسد أخيه، يرفعها ثم يغرسها، تستقر في الرقبة، تنحشر بين عظامها، يجرها بقوة، ثم يغرسها في وسط وجهه!

انقطع النفس المستغيث، لُطِّخ جدار الفصل الذي تُعشعش في باطنه الرحمة والبراءة وليلوّث ظاهره بالعذاب والدماء والصراخ.

يا للهول!

٨

الأرض لا تبتلع الدماء

عند النافذة يتكدس البشر، ينظرون إلى شيء ما، وأنا بقامتي القصيرة ترتحلني حقيبة مليئة بالكتب، أتطاول لأرى ماذا يرون، لكن لم تُشفَ عيني بشيء!

مدرّسنا يثرثر بالجُمل، وتكسو وجهه تعاسة قاتمة، وفي الخارج وتحديداً عند نافذة فصلي، يزداد ضجيج الحشود الغفيرة، فيزداد تمعّر وجه المعلّم.

بعض الوجوه الصغيرة مبهوتة، وهناك أعينٌ صغيرةٌ تبكي!

انتهت الحصة.

أستاذنا التعيس يأمرنا بالصمت المطبق، والويل كل الويل لمن يتفوّه بكلمة واحدة!

ذلك اليوم الدراسي لم يتحدّث فيه أحدٌ إلى أحدٍ، لم نخرج

للفسحة، أتت الوجبات العفنة إلينا، كنا نأكل بصمت، والرعب غصة!

كان هناك أمر جلل بلا شك.

قُرع الجرس، كانت قرعته الأخيرة لذلك اليوم، أمرونا أن نذهب فوراً إلى منازلنا.

كانت سيارات الشرطة تملأ المكان، تحيط بنافذة فصلي الوحيدة!

في المساء كان كلُّ مَن في الحارة يتحدّثون عن جريمة قتل وقعت بجوار مدرستي، كان الخوف الأسود يهطل على البيوت والأشجار، يبل ناصيتي رعباً له نفضه، كنت أرتجف بجوار أمي، وهي تحاول إمدادي بدفئها، تضمني، وتقبّلني، وتخبرني بأنها سوف تصاحبني إلى المدرسة.

المدرسة لم يكن لها حديث إلّا الجريمة، الأطفال زاد بكاؤهم في الساحة وهم يسمعون التفاصيل، أصبحت المدرسة ثكنة للحكواتية الذين يمارسون السرد بروايات متعددة.

إذا كانت هذه الجريمة هزّت كبار أهل الحي وفتوّاتهم، فكيف بنا نحن الذين لم تزل رائحة الحليب تعبق من أديمنا ؟!

قال أحد الرواة : إنَّ الإخوة تنازعوا على الميراث!

وقال آخر : إنهم كانوا في حال سُكر، فتنازعوا.

وقال أحدهم بهمس: لقد خانت المرأة زوجها مع أخيه!

كنتُ أظن أن المدرسة غرفٌ من الجنة، فوقها غرف مبنية، كأحسن ما يكون البناء، تحرسها الملائكة، وتغشاها الرحمة، فإذا هي مسرح للجرائم، ومسلخ بشري في المساء، وفي الصباح يكتنف الطفولة!

بقي الدم أياماً في ذات المكان حتى استحال إلى قشرة سوداء!

كانت أمي تقنعني أن الذي قام بذلك العمل شيطانٌ مارد، لا يمتُّ للبشر بِصِلة، وأن الحياة ليست كلها للبشر، بل بشر وجن، ملائكة وشياطين، خير وشر، نور وظلمة!

وأن الله خلق هذه الحياة بهذه الصورة، ليجعل ذلك اختباراً لنا وفتنة، وحتى يعرف الخبيث من الطيب، والجميل من القبيح.

ثم قالت:

«عندما قتل قابيلُ هابيلَ تزلزلت الأرضُ لأول مرة، وكُسفت الشمس لأول مرة، ونبت الشوك في الشجر، وتغيّر طعم الفواكه، وملح الماء، وقال أرباب النجوم: وظَهَرَ كوكب الذنب!

لما قتل قابيل أخاه هابيل كان في جبل قاسيون في مغارة الدم، فشربت الأرض الدم، فأوحى الله إلى قابيل أين أخوك؟ فقال: لا أدري. فأوحى الله إليه أن صورة دم أخيك تنادي من الأرض

بأنك قتلته، فقال قابيل: يا رب أين دمه؟

فمِن يومئذٍ حرَّم الله على الأرض أن تشرب الدماء!.

بعد أيام من الجريمة انتقل فصلنا إلى الطابق الأعلى، وقد انزاح عنّا همٌّ عظيمٌ، وشعرنا بفرح وحبور، ذلك أننا أصبحنا إلى السماء أقرب!

٩

آباءٌ يرحلون

أحمل الخبز الساخن إلى الحجة «عيشه»، تتخلل حرارته قطعة القماش الملفوفة عليه، أنقله من يدٍ إلى أخرى، أحاذر الوقوع في برك الشوارع الآسنة، وتقرع في أذني نواقيس وعيد أمي أني سأنام مع الكلاب خارج المنزل في حالة إذا لوّثت القرص بوحل ما.

قَرعتُ باب الغرفة الصغيرة التي أوقفها عم سالم للحجة «عيشه» في أزمنة مضت، غرفة صغيرة وفي زاويتها حمام، تشترك معها في الغرفة «قمر» حفيدتها الصغير التي ماتت أمها قبل أعوام.

ظهرت «قمر» بيضاء نقية، مبتهجة دائماً، ووجهها مهيأ للبهجة، ابتسامتها واسعة تصل إلى فروع أذنيها، سبحان مَن خلقها فأبدع! أعطيتها الخبز الساخن، سمعت الحجة تأمرني بالانتظار، تنظر لي «قمر» تسألني عن المدرسة، عن الحديقة التي بجوار المدرسة، عن الخيول التي ترعى هناك، عن المخبز الذي يصنع الكيك المحلي بجوار المدرسة!

مذهولٌ من «قمر»؛ كيف لها هذه الدراية بالأماكن!

أعطتني «قمر» صحناً كبيراً به بعض الـ (لحوح) وصينية (حلبة)، ثم غطته بنفس قطعة القماش التي جلبتها.

ثم همست لي:

ـ بكره الخميس، نروح الحديقة سوا؟

ـ ليه؟

ـ عشان نشوف الحصانات في الحديقة، ونشتري كيك من المخبز؟

ـ أشوف أمي أول!

ـ حتى أنا ح اكلم ستي . . ترد عليّه؟

ـ طيب!

«قمر» تتوعد بـ «أوريك» لو سقط الصحن، ما أجمل وعيدك أيتها الطفلة الرائعة، يا مَن كنت تسلبين العقول بشكل مبهر، أيّ براءة هذه يا نسل تعزّ؟ أية رحم هذه حازت فضل حمْلك؟ ولماذا غاب والدك هذه السنين العجاف وتركك في حضن العجوز؟ أي أب هذا الذي تاهت أبوته في خضم الحياة!

كانت «قمر» واحدة من أهل البيت حتى أصبحت الحجة «عيشه» في وضع صحي لا تستغني فيه عن حفيدتها اليتيمة.

كان حضورها الدائم في منزلنا ملطفاً لطقس البيت الذكوري،

كانت أمي تفتقدها إذا غابت يوماً عن المنزل.

علّمتها الطبخ والغزْل، والابتهالات والغناء في أيام المولد النبوي. هي فقدت أمها في وقت مبكر، وأنا فقدت أبي في وقت مبكر. سافر والدها إلى اليمن وتركها عند جدتها، أمّا أمي فتركت رجال العالم كي تحافظ على فراخها الصغار، وبقينا أنا و«قمر» ترعانا أحضان الجدات والأمهات.

بعض أطفال «السبيل» أيتام ولقطاء ومنبوذون، بعضهم لا آباء لهم ولا مأوى، بعضهم نتاج رجال يمارسون الجنس في الأزقة والطرقات أواخر الليل، يجدون قواريّر يسكبون نزواتهم فيها بثمن بخس، لا يكلّفون أنفسهم إلّا مسح ذكورهم على الجدران بعد الانتهاء، دقائق سريعة ثم تتحمّل المرأة التي لا شجرة لها، أو الهاربة من بيت ملعون، عقوبة التسعة أشهر، إذا لم تجهض مبكراً.

في «السبيل» تجد في كل حين مولوداً في بؤرة، أو برميل زبالة، أو عند عتبة بيت، أو أمام باب مسجد، أو عند ثلاجات مياه السبيل الموزعة في الشوارع، ثم يجدون صدوراً حانية، ولبن أمهات لا ينقطع.

«السبيل» يعج بالأطفال، بيض وسمر وسود، أطفال عراة غرلٌ، يزرعون المكان شقاءً وضحكاتٍ، لا يركضون إلّا في نحر الظهيرة، يشربون من مياه السُبل، ويتبولون في الطرقات، ينسبون إلى الأمهات، ولعنات تلحق الأب الآبق.

١٠

القدر دراجة!

في المساء استجديتُ «ناجي» أن يشدَّ لي جنزير الدراجة، وذلك بعدما نشف ريقي من كثرة إلحاحي عليه، فرضي بعدما جلبت له علبة سجائر رخيصة، ثم أحضر أدوات العدة.

تناول سيجارة في فمه ثم أشعلها.

قلب الدراجة على ظهرها، ثم أمرني أن أشدَّ العجلة الخلفية بكل ما أوتيت من قوة، أخذ يشد «الصامولة»، ويردد بعض أغاني «أبو سراج» والسيجارة تتحرك في فمه دون أن تسقط!

ـ خلصنا يا حلو، وترى إذا مسكتك الهيئة مال أمي دخل فهمت؟

ـ الهيئة ما تمسك الصغار.

ـ يا فرحتك يا خويه، هيا قم من قدامي هيا

انتقل بصوته إلى أمي التي كانت في المطبخ:

ـ يا أمي والله ولدك دا ح يجيب لنا حكاية في الحارة.

ـ سيب الواد في حاله.

ـ يعني أنكتم؟

ـ أيوه لأنه مو صاحب فضايح زيك!

ـ انكتمنا خلاص.

في الحوش أخذت أختبر دراجتي، حتى شعرت بثقة وفرح، أخي يدخن في إحدى الزوايا-وما أكثر زوايا بيتنا- الزاوية بجوار حوض الريحان، ينفث دخانه نحو الريحان، يخشى الأقدار، هو الذي يردد دائماً: نحن نحذر القدر دائماً في كل أسفارنا ومواعيدنا المختلسة، لكنه يصر أن يغتالنا في الطرقات!

يقرر ناجي أن القدر يشبه دراجتي إلى حدٍ كبيرٍ، فهي تأخذني إلى حيث تريد، قد أكون فرداً، أو بصحبة أحد، قد ينفجر الإطار في أجمل اللحظات، قد تنحل صامولة المقود في أي لحظة فتقودني إلى طرق لا أريدها، أو ارتطم بحائط أو سيارة، ربما يخذلني جنزيرها وأنا في أمسَّ الحاجة للعودة قبل حلول الظلام!

..

لم يصبح «ناجي» هو «ناجي»!

بعدما تزوجت «تهاني» فسد «ناجي». أقلقتنا حياة ناجي، لا

أدري منذ متى بدأت العلاقة بين «ناجي» و«تهاني»، لكني أتذكر ذلك اليوم عندما جاءت تهاني هاربة إلى بيتنا دون عباءة!

حاولت أمي أن تقنعها، لكنها رفضت العودة إلى منزلها، فطلبت من ناجي أن يخرج من البيت لأنها تعلم العواقب.

بعد غروب الشمس كانت قبيلة تهاني تقرع الباب بشدة، لتخرج أمي مثل لبوءة تدافع عن أشبالها، لتخبرهم أن الرجال لا يطرقون أبواب الأرامل بهذه الطريقة، وأن البنت في الحفظ والصون، وأخبرتهم أنها ليست من قبائل المكان؛ لكنها تعرف الأصول والحدود.

اجتمعت الحارة عن بكرة أبيها أمام بيتنا الصغير، كانوا ينتظرون خروج تهاني، لكن المفاجأة أن تخرج أمي حاشرة تهاني تحت جلبابها، كأنها فرخ مرعوب. لم يجرؤ أحدٌ منهم على النظر إلى أمي وهي تصاحب تهاني إلى منزلها، وبقيت معها إلى اليوم التالي.

لم تتصاعد الأمور بمثل هذا الوضع إلّا بعدما رُفض «ناجي» عدة مرات من قِبل والدها، مرة بسبب العطالة فوجد عملاً بعد أسابيع، ومرة بسبب السُّكْر، فتركه واستقام وأصبح يصلي، وفي آخر مرة تقدّم «ناجي» رُفض لأنه «قطعة هندي»!

بعد تلك الحادثة، وذلك الهروب المشهود لتهاني، فؤجئنا بزفاف «تهاني» من أحد أقاربها، والذي أخذها بعيداً عن «السبيل»، بعيداً عن جدة، بعيداً عن البحر .

من ذلك الوقت لم يعد ناجي ناجياً .

فُصل من وظيفته، وبنى صندقة للحمام فوق السطح، ثم شُغف بالخشب! أخذ يتتبع شجر الشوحط واللوز، في الأودية والسهول شرق جدة، وقد يوصي ببعض النبابيت من مصر ليبيعها لمحبي الخشب بعد أن يغمرها شهوراً طويلة في زيت الزيتون، ثم يكسو أطرافها بالجلد، ثم ينقش اسمه على طرف العود، لينتشي بعد ذلك عندما يلعلع الخشب في سماء «السبيل» عند المقاشعات، أو عند لعب المزمار في الأعياد، الجميع هنا يقدر عود ناجي.

أمّا الحمام الذي يربيه ويتكاثر بصورة مدهشة لدرجة أن أهالي الحارة بدأوا ينزعجون منه، فهو لا يبيعه إلاَّ في حالة الاضطرار.

يذهب ناجي كل صباح إلى حيث لا ندري، لكنه يرجع في المساء يُقّبل رأس أمي، ويأكل لقمتين، ثم يصعد إلى صندقته، ليتجرّع هناك من قارورته، ثم يلقي بجسده العفن بعد منتصف الليل على الفراش ليزعجنا بشخيره .

كنتُ سعيداً تلك الليلة بعدما أصلاح دراجتي.

كانت ليلة خميس تلك، وهي ليلة الفرح في كل أسبوع، نسهر دون الخوف من المنبهات، وقبل أن أنام سألت أمي:

ـ أمي صح نحنا أصلنا هنود؟!

ضحكت أمي، وأخبرتني أن وصْمنا بالهنود هو من باب الانتقاص، لأننا لا ننتمي إلى قبيلة عربية. ثم أخبرتني أمي عن ديارنا في الشرق، مكان أجدادنا الأُول، حيث الأرض الخضراء والجَمال، حيث يقدسون الشِعر والنساء والغناء، يزرعون الأرز والشاي، ويعصرون العسل، ويحكون الأساطير في المساء. ثم كانت الهجرة شوقاً للمقدس، وهروباً من الحروب الطائفية. استوطنوا مكة، وانشغلوا بالتجارة فأشغلتهم، فتناسلوا بعيداً عن الديار، فنسوا الديار، ليأتي الجهلة بعد ذلك لينعتوهم بالهنود!

ثم أخبرتُ أمي أن ناجي ينصحني بالابتعاد عن «قمر» لأنها بيضاء، وأنا أسمر ذو سحنة هندية، وسوف تتركني عندما أكبر!

ضحكت أمي ثم أخذت تحكي لي قصة الأمير «كوسا» القبيح:

«لمّا كبر «كوسا» طلب منه والده الملك أن يتزوج؛ لأنه يريد أن يرى أولاده، ويطمئن إلى سلالته ومُلْكِه.

فقال «كوسا»: ليس في الدنيا فتاة ترضى بقبيح مثلي!

بعث الملك الرُسل في أصقاع الأرض للبحث، ومرت الأيام والأسابيع والشهور وهم يبحثون، حتى وجدوها في مملكة «مادا»، وكانت ابنة ملك المملكة، فأخبروه ففرح بذلك ووافق.

لكن «كوسا» لم يفرح وقال لوالده: كيف ستقبل بدمامتي؟

فقال الملك: سوف نخبرهم أن من تقاليد أسرتنا أن الفتاة العروس لا ترى وجه عريسها إلّا بعد سنة من عقد الزواج، ويعيشان في دار مظلمة، وبعد سنة سوف تحبّك من حسن معاملتك، وكريم خلقك.

تزوجا وعاشا في بيت مظلم!

بعد شهرين من الزواج اشتاقت الأميرة لرؤية زوجها، فأغرت بعض الخدم بالمال لترى زوجها، فأخبر مولاته أن موكب الأمير سيتحرك بعد قليل، فصعدت الطابق الأعلى من القصر، ثم رأت الموكب يعبر، وفوجئت بدمامته، فرجعت إلى بلدها ونسيت كل شمائله النبيلة!

بعد سنوات سمع «كوسا» أن المملكة محاصرة من سبعة ملوك يريدون الأميرة، فطلب الملك النصح من الحكماء، فقرر الحكماء أن يقطّع جسد الأميرة إلى سبع قطع متساوية، وتُهدى للملوك السبعة، وبهذا تسلم المملكة من الحرب، وبينما الملك يفكر دخل «كوسا» على الملك وقال إنه سيخضع هؤلاء الملوك البغاة أو يموت كريماً.

نزل الميدان، وطلب من الملوك المبارزة قبل المعركة، والمنتصر هو مَن يأخذ الأميرة، ويسلم الجميع من ويلات الحرب. اقتنعوا بكلامه، فغلب «كوسا» الملوك السبعة وأسرهم!

فأخذت الأميرة تبكي وهي تتحسّر لِمَ كانت قاسية مع «كوسا». .

فذهب إليها يودّعها، فارتمت على قدميه تبكي وتلتمس الغفران، وأخبرته أنها نادمة على فعلها، وأنها ستكون زوجة مطيعة!

فقال لها «كوسا»: رغم دمامتي؟!

فقالت: أنا لم أعد أراك دميماً، لقد تغيّر كل شيء فيك، وأنت عندي أقرب إليّ من روحي!

ثم عادا إلى قصرهما، وعاشا في حب ووئام، ورزقا بالأولاد والبنات.

١١

فتنة الكعك

مع نعيقي وزقزقة الطيور في الصباح، والمصحوبين بأريج شجرة النيم الضخمة المغروسة عند الباب، دفع طلال دراجته الصغيرة من الباب. وكانت أمه ترفع يدها في قلب الدار مودعة طفلها الصغير الذي يحمل دراجته ليذهب بصحبة قمره الصغير.

يقود الدراجة، ويتفقد جيب صدره، ربما يتفقد الريالات الخمسة التي نقدته أمه إيّاها.

عند باب «قمر» لم يُضطر للقرع، وإنما هي المواعيد الأولى تقرع القلوب أولاً لتخرج «قمر» منوّرة، مبتسمة كل مخلوقات وجهها، ترتدي فستاناً صيفيّاً بلون السماء وتحمل بيدها قطع سُكّر!

أردفها، ثم انطلقا عبر أزقة وشوارع «السبيل»، التي يرقد على قارعتها رجال يبيعون الخضر والأواني الفخارية، بجوارهم نساء يتاجرن بالنباتات العطرية القادمة من الجنوب.

أحاذر الهوائيات، وأسياخ البيوت الرفيعة، وأسلاك الهواتف العشوائية، والصغير يحاذر الحفر من أجل القمر، تتشبّث به كي لا تقع، ما أجمل الصغار!

كانت المسافة بين الحي والحديقة ليست ببعيدة، لكن الخروج من متاهات الأرض والسماء معاناة كبرى.

وصلنا قصر «خزام»، ذهب الأطفال إلى الحديقة، وأنا وقفت في كوتي القديمة، كانت بعض الغربان تحملق فيَّ، ترددت كثيراً في طردي بعدما رأت الريشة البيضاء!

حديقة «خزام» يرتادها أطفال السبيل والنزلة والهنداوية عصراً، وترعى فيها بعض الجياد التي ما زالت في القصر.

الصغير رَكَنَ دراجته، وبه بعض اللهاث، جلس على رصيف الحديقة. ركضت «قمر» تجاه المراجيح، وراحت تنتقل مثل النحلة في الحديقة.

عندما تعبت جلبت معها قطعة كرتون، وجلسا يفطران، أخذا يقطّعان الخبز الأفغاني.

اقتربتُ منهما، نظر إليَّ طلال ورمى لي بقطعة خبز.

أخذا يغمسان الخبز الناشف في صحن الفول، الذي كان يستأنس بجبنة بيضاء وحلوى سمسم.

اشترك معهما بعض مرتادي الحديقة، من الفقراء، والمقطوعين، وعمال النظافة.

أكره رائحة الفول، ذلك الطعام أجده في كل مكان، الفول في البيوت الشعبية، وتحت الكباري، وفي العُرش المتهالكة، وفي الفنادق الفخمة، ومزابل القصور، إن الفول رغم رخصه وشعبيته، فرض نفسه حتى على موائد الملوك، رغم هذا أكرهه!

بعد الإفطار، أُطلقت الجياد في الحديقة لترعى.

خيول ملونة، أجسادها مشدودة وممشوقة، مرسومة بدقة وإتقان، سبحان من أبدع الانحناءات!

تقدمت الطفلة المشاكسة من الجياد، تحمل قطع السكر، ثم وضعت قطعة على راحتها، وأغمضت عينيها وأخذت تنادي!

لم تُنهِ جملتها إلّا وفرس بيض اقتربت منها، تحمحم، شمّت راحتها الصغيرة، التقمتها، ابتسمت لها الطفلة، أعطتها أخرى، ثم عانقتها!

فعل طلال مثلها، فتقدم منه خيل أسود كالليل البهيم، ليس فيه أبيض إلّا بياض عينيه - أحب اللون الأسود - اقترب الخيل منه، أخذ يشم يده، فخاف أن يقضم كفه، فرمى القطعة فأكلها الخيل، ثم أخذ يمشي خلف الصغير. عدا طلال، فعدا الخيل خلفه، «قمر» تضحك، تضحك وهي جالسة على العشب، وتناول «الفرس» البيضاء قطع سكر، لم يدعه ذلك الخيل إلّا بعد أن تكرّمت عليه طفلة الخيول ببعض القطع.

أخذت قمر بيد طلال نحو المراجيح، طلبت منه أن يمرجحها.

فاتنة هذه الطفلة! دفعها إلى السماء حتى كشف الهواء عن ساقيها الجميلتين، دفعها حتى تجانس لون فستانها مع لون السماء، كانت ساحرة وهي تطلق ضحكاتها وصرخاتها الحادّة، كان شعرها يمتد وينتشر كبساط سحري في السماء!

تأرجحا حتى «أنَّ عمود الضحى»، ثم ركبا الدراجة، وذهبا إلى مكان عريق من أماكن الطفلة الغريبة!

كنت أتابعهما من فوق، توقفا عند إحدى البقالات التي في سوق البخارية، اشتريا علبتي عصير ثم ولجا أحد الأزقة الضيّقة، كان الزقاق أسودَ، متفحمة جدرانه، وعندما بدأ يضيق المكان تركا الدراجة، وأخذا يسيران إلى نهاية ذلك الزقاق الأسود الذي ينتهي بمدخل لا باب له، في المكان الأسود الطفلة تبتسم ابتسامة بيضاء، الابتسامة البيضاء في المكان الأسود!

اقتربا من الفوّهة السوداء، ولجا المدخل، ألوان المكان الزاهية، القوالب المدهشة، الكيك الطازج الساخن، بدا المكان كأنه عالم آخر.

عندما رآهما الخبّاز، قدم لهما كعكاً أصفرَ، كان ساخناً للتوِّ خرج من بطن الفرن، تناولاه بسعادة، ثم جمعا ريالاتهما الذابلة رغبة في المزيد. ابتسم لهما ذلك الرجل الكريم

المتفحم هو الآخر، وقدم لهما ألذ أنواع الكيك المحلي وزاد من عنده.

عدنا إلى السُبل، ونحن في الطريق إلى الحارة أخذا يوزّعان الكيك على الناس، وكل من كان يمر في الطريق يهبانه كعكاً، اقتربت منهما أخذت أنعق، فهمني الطفل الصغير، ابتسم ورمى لي بكعكة كاملة، ما ألذ الكعك!

هل هناك فتنة تضاهي فتنة الكعك؟!

١٢

طفلٌ ملون

إدريس السوداني، صديقي الذي تعرّفتُ عليه في المدرسة، سوداني أبيض، يملك شعراً خشناً أشقرَ!

لم يكن منزله بعيداً عن منزلنا، أخبرت أمي عنه، وكيف أنه يجيد الرسم بطرق غريبة، وهو يتمتع بظرف زائد، أحببت ظرفه وفنه.

لا يلوّن بلون واحد؛ فإذا أراد لوناً خلطه بآخر، مبدع بقلم الرصاص، يستعمل ألواناً زاهية وداكنة في آن واحد، يسحق الطباشير الملونة، يلوّن الحائط بالبخاخ، أخبرت أمي عنه فطلبت مني أن أحضره البيت، عندما جاء صنعت أمي لنا بطاطا مقلية.

كانت أمي تضحك من تصرفاته، كانت تغْزل وتنظر إليه وهو يرسم، أخذت أمي منه وعداً أن يعلّمني الرسم، وكان شرطه أن تحضر أمي له بطاطا مقلية كلّما جاء!

وافقت أمي.

كان يعشق الألوان والبهجة، ويقدس الأكل كثيراً!

أمي وهي تغزل سألت إدريس:

ـ لماذا سُمي إدريس إدريساً؟!

بادرت بإجابة عفوية سريعة:

ـ عشان هو يدرس كثير!

نظرت لي أمي وضحكت وقالت:

ـ صح!

ثم بدأت أمي تقص علينا :

«سُمي إدريس لكثرة دراسته في الصحف، وهو أوّل من خطَّ بالقلم، وأوّل من كتب الصحف، وأوّل من نظر في علم النجوم والحساب، وهو أول من خاط الثياب ولبس المخيط، وكان إذا خاط يسبح الله عند كل غرزة من الإبرة، فإذا غفل وخاط يفتق ما خاطه بغير تسبيح، وكان لا يأكل إلّا من كسب يده، وكان يخيط للناس بالأجرة، وكان الناس يلبسون الأردية بغير خياطة، فلمّا خاط إدريس استحسن الناس ذلك ولبسوا المخيط.

«ويروى أن ملك الموت استأذن ربه بأن يزور إدريس فأذن له فأتى إليه في صورة رجل فقال له إدريس: من أنت أيّها الرجل؟

فقال له : أنا ملك الموت استأذنت ربي في زيارتك فأذن لي، فقال إدريس: إن لي حاجة، قال: وما هي؟، قال: أن تقبض روحي في هذه الساعة، فقال ملك الموت: إن ربي لم يأذن لي بذلك.

«فأوحى الله إلى ملك الموت أن اقبض روحه، ثم إن الله أحياه في الحال، فقال إدريس: يا ملك الموت بقي لي حاجة أخرى، فقال : ما هي، قال: أن تمضي بي إلى جهنم لأنظر أهوالها، فأذن الله له بذلك، فحمله ملك الموت، وأتى به إلى مالك خازن النار، فأوحى الله إلى مالك، أن أوقف عبدي إدريس على شفير جهنم لينظر ما فيها، فلمّا وقف إدريس نظر وغشي عليه من أهوالها، فجاء إليه ملك الموت واحتمله إلى مكانه الذي أخذه منه فصار إدريس من ذلك اليوم لا تكتحل عينه بمنام ولا يهنأ بطعام ولا بشراب ولا يقر له قرار من الهول الذي رآه، ثم إن إدريس دخل إلى محرابه وسأل الله أن يريه الجنة كما أراه النار، فأوحى الله إلى رضوان خازن الجنة بأن يدلي إلى إدريس غصناً من أغصان شجرة طوبى، فتعلق به وصعد إلى السماء».

١٣

القصر العتيق

خرجتُ من المدرسة مع إدريس بعد أن صلصل جرس الانصراف، كان ذلك السمين يشبه ثمرة بطاطا يانعة، خدّاه يثيران الضحك، يحدّثني طوال طريق العودة عن الطعام، عن بائع الكبيبة الذي يشتري من عنده، ويجعله يتحدث بالميكرفون (فوق البيعة)، عن ابنة الجيران السودانية التي تبيع قمر الدين، وأنا أحاول أن أحرف الحديث إلى الرسم، لكنه ينظر إليَّ ليقرر أن الحياة ليست أقلام رصاص وألواناً!

تسلّطت علينا شمس ظهيرة، جلسنا نرتاح على رصيف مقابل القصر المهجور.

لون القصر هو لون الصحراء، نوافذه خُضر خشبية متهالكة، كثيرة هي أشجاره النامية في ساحته والمتسلقة على جدرانه.

قال إدريس :

ـ تعال ندخل القصر ؟

ـ كيف ندخل بيوت الناس؟!

ـ بس هذا مهجور ما في أحد.

أصرّ وذهب كي يكتشف أسرار القصر - كما يقول -، ترك حقيبته المليئة بالكتب، وكيس البطاطا المقلية في حوزتي، وحذّرني من أكل البطاطا ثم ذهب إلى القصر.

أصبحتُ وحدي في ذلك الشارع المغلق بالصبات الخراسانية، لا سيارات تمر، ولا مارّون.

انتظرتُ إدريس كثيراً ولم يرجع!

المشكلة أنه ترك حقيبته بحوزتي، كنتُ متردداً في الذهاب لأعرف سبب تأخّره، لأني كنت أخشى غولة زرقاء، أو كلباً عقوراً!

بعد ساعة من نهار غلب قلقي خوفي، دخلتُ القصر، تجاوزتُ بعض النباتات والمزابل.

في الداخل نافورة قديمة متهدّمة، غرف طويلة جدّاً يبدو أنها للاستقبال، كان المكان مليئاً بالأثاث القديم، والنفايات.

أسمعُ صراخاً وبكاءً في إحدى الغرف!

اقتربتُ من الصوت!

نافذة متهالكة يخرج منها الصوت!

اقتربتُ أكثر، ميّزت صوت إدريس، ترددتُ في الذهاب حاولت الهروب، لكنَّ إدريس يستجدي!

اقتربت أنظر، تيبست أطرافي وأنا أنظر عبر النافذة إلى إدريس الملقى على ظهره، يمسكه أحدهم، والآخر يغتصبه، والثالث يمسح (. . .) بورق الإسمنت، ويسبّه لأنه لوّث (. . .) بالغائط!

شعرتُ بشيء يجمّد العصب، يحول دون أي فعل، لم تعتد طفولتي على فجاجته ولعانته، لم أتصوّر أن يحدث لنا نحن الذين نتقاطع مع ملائكة الله في الطهر أن تصيبنا هذه الرزايا!

كان يبكي وهم يتبادلون الأدوار!

اختلطت دموع إدريس بمخاطه!

تذكرت أخي ناجي فجأة، انطلقت مسرعاً أتّخذ سرداباً في هواء الكون الملوّث، ذهبت إلى البيت لم أجد أحداً، خرجت إلى المركاز ووجدت ناجي مع موسى (الحُق)، أتشبث بناجي أصرخ أبكي أنفاسي لا تستطيع أن تسعفني بجملة مفيدة.

ـ نا . . نا . . ناجي . . إلحق . .

ـ ايش فيه ؟

ـ إدريس مسكوه في القصر قاعدين . . .

انطلق شباب الحارة مع ناجي إلى القصر، بينما قصدت بيت إدريس.

طرقتُ الباب بقوة، فخرجت أمه.

ـ إلحقي يا خاله.. إلحقي ناس في .. في القصر قاعدين (. . .) إدريس!

المرأة خرجت من البيت بلا عباءة، خرجت بثوبها الفضفاض، تصرخ وأنا خلفها، تقطع الشوارع، تتفادها السيارات، تشق الطريق، كأن الوحوش من ورائها.

أحاول أن ألحق بها، لكن قلوب الأمهات تطير.

عند بوابة القصر كان ناجي وعشرات من شباب الحارة متكدسين، يحولون بين الأم وولدها، يؤكد ناجي أنه بخير:

ـ يا خاله اذكري الله.

ـ ولدي أكيد مات.

امتلأ المكان بسيارات الشرطة، جاءت سيارة الإسعاف متأخرة كعادتها في وطني!

إدريس عارٍ لا حراك به، ملوّث بكل عفونات الأرض.

حملوه.

كانت أمه تصرخ، تشد شعرها تمزق جيبها، يرمون العمائم لسترها.

تلاشى الجمع بعد ذهاب الإسعاف، بحثت عن حقائبنا فلم نجدها، زاد بكائي على كتبي، صبّرني ناجي بأنهم سيصرفون لي أخرى.

انتشر الخبر الرهيب في «السبيل»، ذهبت أمي إلى منزل خاله خديجة ـ أم إدريس ـ البيت مليء بالبنات السبع اللاتي لا يتوقفن عن الصراخ على رجل البيت الذي انتهك جسده!

عندما وصلت البيت انقضّت عليّ أمي فجردتني من ملابسي، لتنظر في مؤخرتي، لتتأكد من الحمى أنه لم يُنتهك، ثم سجدتْ شكراً، وبعدما أنهت طقوس الشكر لطمتني ثم أخذتني في حضنها، أخذت تشد شعري من الخلف لأني خالفت الوصايا المقدسة، وذهبت إلى أماكن الذين ظلموا أنفسهم!

١٤

.. مكاناً عليّا

عندما تجاوزت الدرجات، فقدت الصفاء!

الصورة تتهتك في داخلي بفعل الحرارة .

همهمات فوق رأسي لا أعي منها شيئاً.

هناك أشياء باردة تباشر جبهتي كل حين.

أشعر كأني على أرض من طين.

أرض مليئة بالغائط، تؤذيني، تكتم أنفاسي .

أسمع صراخ إدريس

صوت إدريس يجرح أذني.

أشعر بصداع وغثيان .

لا أستطيع أن أفتح عينيّ .

أشعر بماء بارد .

بآيات وخواتيم .

أحدهم يحملني ويقول:

ـ خلاص تعبتنا يا كلب، ح تشوف حاجات أعفن من دي في حياتك .

الذي يحملني، كأنه وضعني في برميل الحمام الأزرق .

هل يحاول إغراقي .

لا جواب .

لا مقاومة .

حمى .

حمى .

أركضُ على تلك الأرض الملوثة،

أسمع صوت إدريس،

أحاول أن أهرب منه،

أجد حبلاً أبيض به زهور يتدلى من السماء.

أتعلّق به.

تلحقني قمر.

أمسك يدها،

نتهادى في السماء،

يسحبنا الحبل إلى عنان السماء،

يُدخلنا في سحابه تغمرنا، بالمياه والبرَد، تسلخ عنا القذر والعطن والعفن!

نعرج في السماء عروجاً سريعاً،

نتمسّك بحبل الله،

نغمض أعيننا التي لم تعد تميّز العالم، ثم نخترق السماء الدنيا إلى سماء أخرى، ثم إلى أخرى.

نخترق بحراً لا يغرقنا، نتنفس فيه مثل الأسماك، نشاهد مخلوقات غريبة عجيبة، نملأ أعيننا فتنة.

نتجاوز البحر إلى قوائم عرش الله،

يُصدر العرش أطيطاً،

يهتز العرش،

ينزل لنا إدريس من مكان عليٍّ.

يأخذنا إلى شجرة طوبى.

تحت الشجرة كان أبونا إبراهيم الخليل.

يرتحلونه الأطفال.

يلعبون معه.

يداعبهم.

يتشبثون بلحيته.

يجمعهم بحب.

يحكي لهم قصصاً.

يقترب منه إدريس.

ينظر إليه إبراهيم .

يقرّبه إليه.

يقرّبه.

يقبّله.

نقترب منه.

يضع يده اليمنى على جبهتي، أشعر ببرد يسري في بدني.

عرق

عرق

عرق، يتفصد من كل المسام، يبلل كل شيء.

أفتح عيني، أنظر إلى أمي وهي كالحِلس على سجادتها:

ـ أمي. . أمي.

تصلّي بخفة بعد سماع الصوت الخفيف، تضع راحتها على الجبهة فتباشرها برداً وسلاماً . .

ـ أمي. .

ـ أيوه يا قلبي. .

ـ جوعان!

١٥

خشبٌ يصدح!

بعد الحمّى التي نفضتني أياماً، أصبحتُ أذهب إلى المدرسة بدون وعي، شاحباً من أثر الحمّى، كنت أنظر إلى كل الذكور الكبار بنوع من التقزز والريبة.

لا أستوعب ما يقوله المعلم، أرغب في الهروب من أرض الله، أبكي عندما أتذّكر «إدريس» الذي كان يتحاشى النظر إليَّ عندما زرته في المستشفى، كنت أقتربُ منه، أريدُ أن أمسح دمعته، أن أسرد عليه تفاصيل العروج، ورهبة المكان العليّ الذي كان يؤويه ؛ لكنه يصرف وجهه عني، وعن الجميع.

لم أزر «إدريس» بعد تلك الزيارة، لأني شعرت بانزعاجه الشديد مني، لم ألمه؛ لأن الإنسان يمقت كلَّ من شهد امتهان كرامته.

بعد الانصراف من المدرسة يأتي «ناجي» بدبابه المزعج، يشق جموع الطلبة، لينشلني من بينهم.

وبينما يتراشق ناجي بالسباب مع سائقي العربات

فجأة!

تحصحص الجمادات!

تضع لنا النواميس لتدلنا على الخزي!

أضرب ظهر ناجي بفزع، أشير له بأن أحدهم يحمل على ظهره حقيبتي البرتقالية، التي فقدتها في الحادثة!

ـ شنطتي يا ناجي، قسماً بالله شنطتي.

صرخ ناجي في الولد، يسأله من أين له الحقيبة؟ فيخبره أن شقيقه وجدها في الطريق!

يسأل ناجي عن اسم أخيه، فيخبره، فيتمعّر وجهه، ثم يتركه في حال سبيله!

ـ ناجي!

ـ خلاص قفل فمك!

في عصر ذلك اليوم أخذني ناجي معه على الدبّاب. كان خلفنا، «قاسم أبو شرين» يحمل «شوناً» عظيماً!

«عثمان العبد» يردف «حسين الصاعدي» والذي هو الآخر حمل نبوتاً صلداً!

ــ ناجي فين ح نروح؟

ــ ندوّر على اللي (. . .) إدريس!

ــ (. . .)!

ولجنا «القريات».

أولاد صغار سود ينتشرون في الأزقة والطرق، نساء شعث يخرجن من النوافذ، حبشيات يمارسن الجنس بخمسة ريالات، عيون ترقب المكان لبائعي القات والعرق، بيوت متحاشرة مكتظة بكل علل البشر.

يسأل «ناجي» عن «سالم عنبر»، يدلونه على ملعب الصبان. نذهب إلى هناك، ينزلني من الدباب، نمرّ على الجموع لنحدد الآثم، اقتربنا من شلة مريبة، توقّف ناجي عندما رأى أحدهم:

ــ هاا عرفت أحد؟

كان أحد الذين اغتصبوا إدريس يقتعد «بلكة» حمراء، ويشفّط من علبة!

ــ هو ذاك يا ناجي.

ــ سالم عنبر الكلب.

رجعنا إلى شلتنا المباركة، جعلني ناجي في عهدة «حسين الصاعدي»!

ثم نكصوا إلى الكلب سالم عنبر - بعدما رفعوا أزرهم -، جعلوا النبابيت على المناكب، عن يمين ناجي، قاسم أبو شرين، وعن يساره عثمان العبد.

يقتربون!

أبو شرين لا يقترب من الغرباء إلّا إذا أراد شرّاً، يرفع نبوته عالياً مع أشعة الشمس يصهلل العود الذي شرب زيت الزيتون دهراً، ليستقر على رأس سالم اللعين، ثم تبدأ المعركة، يتعاضد القوم مع ابن حارتهم، لكن معركة النبوت إذا وجدت أيدي تجيد التعامل مع العروق ستكون الغلبة لأهل الخشب، الخشب يقرع رؤوس الجمع ويولون الدبر، تُكسر العظام، تشدخ الخياشيم والركب.

أحاول أن أعرف التفاصيل، لكن «حسين» يسحبني من رجلي، أحاول أن أتخلَّص منه، فيضع رأسي تحت إبطه، يخرج من جيبه كيس النشوق، يكوّر واحدة ويضعها تحت شفته العليا، ثم يضع رجلاً على أخرى ويرقب العراك.

يستمر العراك، الجموع بيني وبين الكر والفر، فلا أكاد ألمح ناجي، لكن سمو النبابيت يقرر أن الغلبة لنا.

جيوب «النزلتين» تخرق الأفواج، تفرق المتجمهرين، «ناجي»

و«سالم» يتعاركان، ينزل العسكر يأخذونهما ويضعون كل واحد في سيارة، يحررني حسين من إبطه النتن، أهرول خلف السيارة التي أخذت ناجي، يمسك بي عثمان العبد كفأر :

ـ سيبني يا عبد، سيبني، أخويه راح.

ـ أخس عليك يا دجاجه.. بلى في شكلك على إيه تبكي؟

ـ ح أقول لأمي ايه؟

ـ ياواد بلا دلع، هيا أركب، هيا.

غربت الشمس.

أسمع أمي تصفق، وتناديني، يقربني عثمان من الباب، ترى دموعي.

ـ خير ؟ الله يصبرني يا رب، ايش فيه الواد يبكي يا عثمان؟

ـ يبكي على ناجي، أخذته الدورية؟

ـ ليه كنتوا سكرانين برضه؟

ـ لا يا خاله، لقينا الكلب اللي (. . .) إدريس.

ـ وبعدين؟

ـ تضاربنا معاهم، وأخذت الدورية ناجي.

ـ هو بخير؟

ــ أيوه.

ــ والوسخ التاني؟

ــ خلاص، أخذوه.

ــ الله يبرِّد على قلبك يا خديجة.

في صباح اليوم التالي، اعترف سالم، ووشى برفاقه؛ فذهب إدريس وأمه بعدما جاءتهم سيارة الشرطة، ليتعرف على سالم عنبر ومن شاركه الجريمة.

خرج ناجي بعد ذلك، أخذت أم إدريس تُقبّل يد ناجي، وتدعو له.

لم نعرف التفاصيل بعد ذلك، لأن إدريس اختفى واختفت عائلته. قيل إنهم تركوا الحارة وانتقلوا إلى «الكندرة» بعيداً عن النظرات، وعن الحدث المشين.

أمّا أنا فأظن أن إدريس ارتفع إلى السماء!

في طفولتنا نعيش فوبيا انتهاك مؤخراتنا، لا أصدِّق أني حافظت

على مؤخرتي حتى الآن، عشنا في الحواري أطفالاً لا نرى إلا الرعب والنزوات التي تتحرش بنا في الأزقة والطرقات، والبيوت المهجورة، حتى المدارس لم نسلم من تحرشات الطلبة المراهقين الذي كانوا يجاوروننا المقاعد، كنا نشعر بالنزوات حتى من معلمي الصبية.

يكذب من يقول إنه عاش طفولته ولم يمسح أحدهم على مؤخرته، ومحظوظ من سلم دبره من العبث!

١٦

البئر المعطلة

نحاول تجاهل السواد الذي في الجمجمة، نتقافز من فوق مستنقعات الذاكرة إلى بياض الطفولة ولبنها الذي لا يمل.

البيوت المهملة، أصبحت تثير في داخلي الرعب، لكن هذا تلاشى ذات يوم عندما كنا نلعب الكرة بجوار بيت مهمل من الخارج.

ركلت الكرة فسقطت في حوش ذلك المنزل، فكان لزاماً عليّ أن أجلبها، عندها تذكّرت تفاصيل القصر المهجور، خشيت أن أرى ما لا يسُر، خشيتُ أن أقع في فخ مهلك، لكن إصرار الرفاق وصراخهم دفعني أن أجلبها مهما كان النتيجة.

عندما تسوّرت الجدار كان الحوش نظيفاً، والمنزل عامراً، كان شجر اللوز يملأ المكان، وفي أقصى الحوش شجرة «مانجا» ضخمة؛ تحتها طاولة صغيرة وكرسي هزاز، بحثت عن الكرة فلم أجدها!

عندما اقتربت من الطاولة وجدت عليها إبريق شاي وفنجاناً لا تزال تتصاعد منه الأبخرة، وكرات من الصوف، ومغازل رفيعة. لم أجد الكرة، فقررت الرجوع، وبينما أنا أحاول أن أتسلّق، سمعتُ صوتاً من خلفي:

ـ تعال!

توقفتُ تماماً عن الحركة!

التفتُ خلفي؛ فوجدت امرأة جميلة تحمل الكرة بيدها، مدّت لي بالكرة، ثم أخبرتني أني إذا أردت شيئاً من منزل ما فما عليَّ إلّا الاستئذان.

كنت محرجاً جدّاً.

وكانت هي جميلة جدّاً، كان جسدها ممتلئاً بياضاً وجمالاً، أعطتني الكرة وأخرجتني من الباب. عندما سألني الأصدقاء أخبرتهم أن الجنيّة البيضاء اختطفتني إلى عالمها جزءاً من نهار، ثم اختلقت لهم قصة، فصاروا كلّما سقطت كرتهم إلى ذلك المنزل يأمروني أن أذهب إلى صديقتي الجنيّة، فكنت أقرع الباب ثم أتأخّر عنهم كي أوهمهم بأني في عوالم أخرى، أخبرت المرأة بذلك فكانت تبتسم.

مع الأيام تولدت صداقة بيني وبين تلك المرأة، كان اسمها «كاملة»، وقد كانت كذلك، تلك المرأة التي كانت تجلس كل عصر تشرب الشاي وتغزل.

سألتها مرة لمن تغزلين؟

فأخبرتني أنها تصنع ملابسَ للأطفال، فتارة تصنع قفازات، ومرة جوارب، وأحياناً قبعاتٍ ملونةً.

لكني لم أشاهد أطفالاً في منزل (كاملة)!

ذات يوم، وفي وقت مبكر ذهبنا أنا وقمر لقطف اللوز من منزل «كاملة»، حملت قمر سطلاً بلاستيكيّاً صغيراً لجني اللوز، وكنتُ أسحب صنارتي الطويلة ورائي.

توجهنا إلى منزل كاملة.

بهدوء نتجه إلى شجرة اللوز، لا نريد أن نلفت الانتباه، لأن كاملة تعرفني من كثرة الحصباء المتناثرة جراء رميي للطيور التي تعشش في شجرتها!

بهدوء أرفع صنارتي، تضمني قمر إليها لتريني اللوز الناضج، كنت أشعر بأنفاسها قريبة مني، بشفتيها تباشر أذني، أشعر بقشعريرة لذيذة تسري في جسدي،أستمتع بالشعور وهي صادقة في الدلالة.

صنارتي طويلة وثقيلة، وصيد اللوز يحتاج إلى جهد ودقة.

كان اللوز الناضج بعيد المنال، كنت أتطاول، أضع الحجارة فوق بعضها البعض لأتمكّن من الوصول.

سمعتُ كاملة تحذرني من السقوط!

ـ انزل!

نعتذر لإزعاجها.

من نافذتها تبتسم وتقضم قطعة الشابورة. ما أعظم هذه المرأة!

تنادينا لنفطر معها!

نعتذر.

تصرّ، وتذكر أن اللوز في الداخل لا يحتاج إلى آلة للقطف!

أنظر إلى قمر، تنظر إليَّ قمر، ندخل بعد أن فتحت لنا الباب.

قبّلتنا، كانت مبتهجة بحضورنا، كان حوش منزلها نظيفاً إلّا من ورق الشجر، وبعض ثمار اللوز التي كانت تخذل الصنانير.

كان اللوز بالفعل في متناول الأيدي.

قالت قمر:

ـ ممكن ناخذ شويه؟

ـ أيوه، بس نفطر أول، ح يسد نفسكم عن الفطور.

ما أجمل الفم والحديث الذي تطلقه كاملة! تسألنا عن دراستنا والحياة، ما ألطف هذه البيضاء!

ثم دخلنا المنزل، ولأول مرة أدخل منزل كاملة، كانت حدودي محدودة!

قدمت لنا سندوتشات وحليباً ساخناً.

فتحت لنا التلفاز، وألقمت جهاز الفيديو شريطاً، كان للمسلسل الكرتوني الشهير «فلونه»، لم نعتد أنا وقمر على مشاهدات الحلقات الكرتونية تِباعاً، كنا مشدوهين للشاشة، ناولتنا الشيبس والعصير.

كانت هي تشاهد معنا كطفلة!

بيتها جميل، مرتب، لا يسكن معها أحد!

بعد المشاهدة ذهبنا إلى شجر اللوز، وأخبرتنا ماذا يفعل الأطفال بالشجر وشوكه الذي يعطي للشجر وفرة، وأن الوفرة لا تعطي جمالاً للشجر فقط؛ بل مسكناً للطيور، ثم أرتني عشّاً به فراخ صغيرة، ثم وكزتني لتخبرني بأني إذا رجمت الطيور فإني أهلك طيوراً أخرى صغيرة!

أخبرتنا كاملة أن ألذ الثمر ما يُجنى باليد مباشرة، وأن المواسم إذا أتت واشتهينا اللوز، علينا بالأبواب نطرقها!

منذ ذلك اليوم لم أقترب من شجرة إلّا وثمارها دانية، ولم أقذف عصفوراً محكياً أغبرَ، ولم أُنفّر حمامة مطوّقة.

ذهبنا إلى كاملة كرّةً أخرى بعد زمن، ولكن طردنا رجل من أمام الباب عندما سألنا عن الجميلة.

عرفت في ما بعد أن كاملة تزوجت أكثر من رجل، لكنهم يهجرونها بحجة أنها بئر معطلة!

ذهبت كاملة، هجرت الحي لكنها تركت لمسة حنونة ودافئة في صدورنا، وحنيناً لها كلّما أرى اللوز والشجر، لا أزال أتذكّر كلماتها وحروفها عندما أمر بمنزلها بعدما قطعت أشجاره.

ما أكثر الخلق الذين نعاشرهم، نعيش معهم السنوات ذوات العدد، لكنهم يذبُون وتذوب أسماؤهم مع الوقت، ولكن بعض البشر يسقطهم القدر في الطرقات، وفي نقاط التجمع العارضة، في الطوابير المنتظرة، في صالات المطارات، على مقاعد الطائرات، وفي مدن الدنيا الواسعة، يجمعنا القدر بهم لحظات، دقائق مختلسة من الزمن، لكنهم يتركون أثراً في الروح والذاكرة.

١٧

السواد الذي طالنا

بعدما انتهينا من لعب الكرة في حراج الدبابات، حدّثني أحدهم أن هناك نزاعاً بين العراق والكويت على البترول، كنتُ أمسح العرق عن جبيني، ثم جلستُ على الكرة وقلت:

ـ طيب إيه يعني؟

ـ ما أدري، أنا بس سمعت أبويه أمس يقول كذا!

نحن الصغار لم نشهد حرباً من قبل، لم ندرك حروب العرب، ولا العدوان الثلاثي، ولا النكسات ولا حرب اليمن، ولا لبنان، ماذا تعني الحرب؟!

في المساء كنتُ أنشر مع أمي الغسيل؛ فدخل ناجي بجلبة، نظرت له أمي وقالت:

ـ خير؟

ـ احتل صدام الكويت!

ضربت أمي صدرها وسقطت ملابسنا في أرض الحوش الملوثة!

ذهبت أمي فوراً إلى الراديو الراقد على ثلاجتنا المنهكة، وأخذت تقلّبه، الراديو الذي لم يعتدْ على أخبار الحروب بعد؛ يصدح بعد الفجر بصوت عبدالباسط، ومحمد رفعت، ويشدو في المساء بصوت نجاة وفيروز.

ـ ناجي إيه دخلنا في الكويت؟

ـ الدور علينا يا حلو!

ـ يعني ح نشارك في الحرب ؟ ح نحارب العراق؟ طيب ماكانوا أصحاب؟

ـ حبيبي ما في شي في السياسة اسمه أصحاب فيه مصلحة وبس، فاهم؟

ـ لا.

ـ أحسن!

ذهب ناجي إلى مستودع (باوزير) ليجلب لنا مؤونة لأيام الحرب، فكل كل شيء معرض للانقطاع!

أشياء كثيرة تمليها الحرب، تصرفاتنا تصبح طائشة، حتى الكبار

يفتقدون الاتزان، لم نكن شعباً قد اعتاد على الحروب بعد.

كنتُ أفكّر في العراق، كنتُ قبلها قد شاهدت فيلماً عن الحرب العراقية الإيرانية، كنت أرى الجنود يطيرون إلى السماء، كنت أظن أن القنابل تقذفهم إلى مكان بعيد دون أن تمسّهم بسوء.

حرب طاحنة خاضها العراق استمرت قرابة العقد، لم يرتح سوى عامين فقط، كانت هناك قمة في بغداد، قبل احتلال الكويت، كانت القناة الأولى تبث القناة العراقية، كان يسرّب إشارات عبر التلفاز بأن الحرب لم تضرهم، ها هم يغنون ويرقصون!

كنتُ أنا وقمر نقوم بإلصاق أكياس النفايات السوداء على النافذة الوحيدة، ونلصقها بشكل جيد حتى لا يتسرّب كيماوي صدام إلى الحجة (عيشه).

تضحك وتقول:

ـ طيب لو الصاروخ أجا من السقف؟

ردت قمر:

ـ ح يريحنا يا جدة؟

قلت:

ـ سمعت ناجي يقول إن الصاروخ الواحد يكلف ملايين، ويكون موجهاً غالباً لمكان محدد، يعني مو معقول يقصف بيوتنا الخاوية إلا بالغلط.

ـ هو كل حروبنا يا ولدي قامت على الغلط، لكن الغلابى ربي معاهم.

كل ليلة كنا نُسمّر أمام الشاشة فنرى أشياء، ونسمع في الراديو أشياء أخرى مختلفة!

يجلب معه ناجي جرائد غريبة منها جريدة حمراء اسمها «الظهيرة»، حتى ناجي تغيّر، يتحدث مع رفاقه في الأحداث، يأتي إلى البيت مبكراً!

ـ ما شاء الله على ناجي مشاكله خفّت!

ـ ايوه عشان الحرب يا أمي.

ـ يعني ما يعقل إلا إذا جتنا المصايب!

هكذا نحن في الحروب؛ يعقل المجنون، يُجن العاقل، يبقى المواطن، يهرب المدّعي، تكثر الشائعات، يندر الصدق، تقترب القلوب، تبتعد الشُقة، يفيض المحسن، يغل الجشع، هكذا نحن، إمّا أن تطهرنا الحروب، أو تقرر نجاستنا!

١٨

شعب ينزح

في العصاري نذهب أنا وقمر على الدراجة إلى إسكان الشرفية، تلك العمائر التي جُعلت لمئات الأسر الكويتية النازحة.

النساء ينزلن في كل عصرية إلى الحديقة مع أطفالهن، أطفال يحاولون التعوّد على الخطى، وأطفال يتأرجحون، الأمهات وجوههن مصفرة كدرة، يعلو ذلك نظارات واسعة يحمين بها وجوههن من أشعة نجمنا القاسي، ينحدرن من قبائل سُبيع، وعتيبة وعنيزة، بنات الجزيرة لهن سمات جمال عزيزة لا تكاد تفارقهن لولا التعبيس الذي لا ينفك من الجباه والشفاه.

الأطفال في الحديقة نوزّع عليهم قطع الكعك الأصفر الطازج، بعض الأمهات يرفضن الكعك، لا يردن أن يلبسن لباس الفاقة.

حتى إذا أوشكت الشمس على المغيب عدنا.

عندما نلج الحي، لا نكاد نسمع إلّا أصوات أجهزة الراديو التي

علا ثمنها، النوافذ وضع عليها حرف «إكس»، وبعض النوافذ حجبت بالسواد خوفاً من الكيماوي.

جموع غفيرة خرجت من السبيل ذلك المساء، زاد لغطهم، يتحدثون بأصوت عالية، وبعضهم بح صوته، يتحدثون ويبصقون على الأرض، وكومة من سحب التبغ فوق الرؤوس بعد أن تخرج من المناخير والأفواه المتضجرة.

بعضهم يتحدّث عن الرحيل، وبعضهم ضده، يتحدّثون عن الخيانة وعن الأرض و الوطن، يتحدّثون عن الجوع والأمن!

أنا وقمر نجهل ما يجري، أحدهم نظر إلى قمر وقال:

ـ إنت يا قمر تشتي تروحي البلاد، أو تقعدي مع اليتيم؟

اعتبرت ما قال إساءة لي، وتدخلاً في شؤون الغير دون وجه حق.

ـ مال أمك دخل تروح والا تطير؟!

رد بوقاحة وبذاءة متناهية:

ـ وتحسب أن أبوها بخليها معك، وانت بقي لك كم يوم وتصير تدهن إيرك في الليل والنهار ولا تشبع!

ـ يا حيوان يا وسخ يا..

كان يسفر ضاحكاً عن أسنان صفراء داكنة. رميته بالحجارة، أخذ يهرب بطريقة ساخرة رافعاً إزاره العفن، كاشفاً عن مؤخرته!

أكملنا طريقنا أنا وقمر وأنا أنظر إلى الأرض وفي عيني دمعة عصيّة.

أركل الأرض وأدفع الدراجة أمامي.

وصلنا إلى مأوى قمر، صعدت الدرجات الثلاث، ثم اتجهت نحوي قاصدة سوادي الأدنى منها، فدنت حتى صار وجهها قبلة، أمسكت بيدي تهوّن عليَّ، وتقرر أن الناس سيبقون يتحدّثون إلى يوم الدين ما دام هناك قطعة صغيرة تدور في أفواههم، قطعة تشتهي الحراك والخوض في كل شيء جميلاً كان أو قبيحاً، وأن الجمال له حيّز بسيط لا يذكر أمام القبح الطاغي والذي هو في الحقيقة مجرد كلام فارغ من كل شيء.

ـ هو كلام يا طلو كلام!

خرجت الدمعة العصية، مسحتها بسباحتها الصغيرة، رفعت شعري من على جبهتي وقالت لي:

ـ ح نطلع بكره كمان؟

ـ لا.

ـ ليه؟

ـ بس!

ـ خايف من الكلام برضه؟

ـ . . .

ـ تقول جدتي: أكثر شي يسويه الكلب يهوهو!

١٩

أبانا الأزرق

بعد الفجر تسحب قمر سلك الباب، تقترب من أمي التي تكنس الحوش، تُقبّل يدها، تأخذ مكنسة هي الأخرى، وتقومان بالكنس معاً، ثم بعد ذلك تقوم بإيقاظي بطريقتها المستفزة، تلف منديلاً وتدخله في أنفي، تسحب المخدة!

توقظني أمي فأصلّي بكسل قبل أن تشرق الشمس، أجلس على صندوق بيبسي، أنظر إلى الغراب الذي يبحلق فيّ!

تستأذن قمر أمي لنذهب إلى البحر، لكن أمي معترضة لأن البحر بعيد علينا، ومجازفة أن نذهب بالدراجة إلى هناك، انكسر خاطر قمر، وهذا ما لا ترضاه أمي أبداً.

لكنها ضحكت فجأة!

ـ لكن ح ترحوا!

ثم طلبت منا أن نحضر خبزاً من الفرن المجاور.

عندما رجعنا وجدنا ناجي ينظر إلينا بعينيه المحمرتين، وهو متجه إلى دبابه ويقول:

ـ تبغوا البحر يا أولاد الكلب هاا ؟!

وبشكل سريع عملت لنا أمي السندوتشات لكي نتناولها إذا وصلنا البحر، لكن ناجي الذي غسل وجهه بغضب رفض إلّا بعد أن يفطر ويشرب الشاي ويدخن سيجارة.

الدباب في أقصى الحوش يهدر برتابة، ونحن ننتظر ناجي أن يشرب الشاي والسيجارة، ثم أمرني بالصعود وجعلني في المقدمة، وجعل قمر في المؤخرة وقعد بيننا.

ـ انتبه ع الأولاد يا ناجي، بشويش دخيلك.

ـ طيب يا أمي.

ـ قمر انتبهي من الشكمان لمن تنزلي لا يحرقك.

ـ طيب يا أمي ـ تقلد ناجي ـ.

ـ وانت يا طلو خليك عاقل، احترم اخوك الكبير، لا تسوي شقاوه.

ـ طيب يا أمي..

ناجي يقرر:

ـ يا واد اسمع كلام أخوك الكبير تفلح في دنيتك.

ـ طيب يا اخويه.

ينطلق ناجي بنا إلى اليم، نطلق صيحاتنا الصغيرة بأن يسرع أكثر، ورغم أن البحر غير بعيد، إلّا أنه كان مهاباً عند رؤيته، ذلك المخلوق الشاسع الزرقة خوفه من الفطرة، ذاك أنه يستأذن الرب في أن يغمر اليابسة كل يوم، إن علاقتنا بالبحر غير مطمئنة، وإن أعطانا جمالاً في موجه وساحله.

اشترينا طائرات ورقية، ناجي أخذ علبته التي لف فيها جلبه ووضع في صنارته طُعماً، ثم ألقاه في البحر وعلى الشاطئ اقتعد إحدى الصخور ليشعل سيجارة، تارة ينظر في البحر وتارة ينظر إلينا ويبتسم بمرارة، يبدو أنه كان يتذكر «تهاني» في تلك اللحظة.

أقرّب طائرتي من طائرة قمر، تشتبك الخيوط ببعضها، ينقطع خيط طائرة قمر، فتغيب الطائرة في أفق البحر، لتستقر فوق أمواجه بعيداً بعيداً، ذهبت طائرتها، وبقيت خيوطنا متشابكة، أعطيتها طائرتي لكنها رفضت بحجة الملل.

كان ناجي ينادينا لنقترب منه، عندما اقتربنا أمرنا أن نبحث عن بعض القوارير، ثم بدأنا ندخل قواريرنا البحر؛ لنخرج أسماكاً صغيرة، ثم بدأنا نكرر لنرى من يجمع أكبر قدر من الأسماك.

قررت قمر أن تجلب أسماكها إلى المنزل، أخبرها ناجي أن السمك إذا خرج من البحر لا يغني؛ وإذا لم يغنى السمك مات، واقتنعت وهي تبتسم.

سحب ناجي جلبه من البحر، لم يكن به طُعم، صعدنا الدباب، وأعطيت طائرتي الورقية بعض الأطفال الذي يستجدون الناس.

في الطريق كان ناجي يسير بهدوء، لا يتحدث إلينا، لم يشتمنا كعادته، كان أثر البحر حزناً على وجه ناجي.

رجعنا البيت قبل الزّوال، أخبرنا أمي عن التفاصيل، وأخبرناها عن السمك الصغير، وعن حظ ناجي العاثر في الصيد، وعن حزنه.

ثم بدأت أمي تحكي:

ــ مره خرج سيدنا يونس زعلان من أهله وناسه عشان ما سمعوا كلامه، عشان كذا زعل منو ربنا (. . .).

٢٠

عرق بريء

قمر منكسرة، لم تكن نزقة كما عهدتها، عندما وصلنا إلى حديقة الإسكان، توجهت إلى الأرجوحة، وطلبت مني أن أدفعها بكل ما أوتيت من قوة، صعدتُ معها توليت أمر الأرجوحة، لم يصدر منها صوت ولم تبتسم، شعرها الأسطوري المتطاير كان يثرثر بطريقته.

في طريق العودة وأنا على الدراجة، حضنتني قمر من الخلف، وبقوة أسندت صفحة وجهها إلى ظهري المبلل بالعرق!

ـ عرقان!

ـ عرق الأطفال ما يضر.

نزلت من الدراجة وجهها مضرج بالدموع، دون ابتسامة مدهشة، تزمّ شفتيها حتى أصبحتا كحبة توت بريّ.

لم تلتفت لي من شق الباب

لم تبتسم

لم تلوّح بيدها الصغيرة كالعادة.

بعدها صليت بجوار إنسان كريه، تذكرت قمر عندما ذكرت أن رائحة الأطفال لا تؤذي.

قبل أن أنام سألت أمي:

ـ أمي.. ليش الصغار ما تطلع منهم ريحة عرق؟

أخبرتني أمي أن الأطفال لهم قداسة؛ هم ملائكة، دماؤهم لم تخالطها خطايا بعد، إنهم حديثو عهد بأثداء الأمهات، لهذا أجسادهم تفوح بالحب.

أغمضت أمي عينيها!

الآخرون يقتربون منهم.

يتحدثون معهم ويلعبون دون معرفة مسبقة.

الأطفال تحت كنف الله

تحرسهم الملائكة

تراقبهم وتحفظهم من أمر الله

تخفف الصدمات والسقوط.

كانت أمي تشم رقبتي أثناء الحديث.

كانت تتأكد من طفولتي، ومن البياض الذي لا يزال يسري في الدماء، كانت ترجوني أن أبقى طفلاً مهما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

إن الطفولة يا ولدي حق وما سواها باطل، براءة وما سواها قذر.

ثم عاهدت أمي ونحن ننظر في السماء أن أكون طفلاً .

وأنا أضع رأسي على المخدة كنت سعيداً بذاتي، بجرمي الصغير، وعقدت النية أن أخبر قمر جواب أمي حول عرق الطفولة.

٢١

طوفان تعزّ

فوق صندقة ناجي ألتهم فأراً نتناً، وأسمع الأمهات يتحدثن عن الطوفان القادم من اليمن، أكره الطوفان إنه يذكرني بخطيئتي الأولى وبلعنة السواد.

الطوفان قد يكون شخصاً يأتي من بعيد، لا يمارس قرصنة، لكنه يأتي بالمشروع، يطالب بحق ويتعاطف معه الخلق، ولا يعلمون أنه ينحر طفلاً!

الطوفان يأتي من اليمن يأتي من تعزّ، يجتاح في طريقه الأغنيات والزهور، والنجم والشجر، يطمس ألوان الحياة بالطين، يجرح الأرض ويتّجه شمالاً.

الأطفال يلعبون في أزقة السبيل

يذهبون إلى الأسر النازحة في الشرفيّة

يوزعون الكعك

يربطون حبالاً في أغصان النيم، ويتخذونها مراجيح

يدرسون

يغنون

يشخبطون في الجدران

يقطفون اللوز

يشاهدون الرسوم المتحركة

يذهبون إلى البحر

يطلقون طائراتهم الورقية في السماء

وفي ليالي الخميس ينصتون إلى الحكايات و«حواتيت» الجدات

ويجهلون الطوفان، الذي يجرف كل خلق الله وينتهك الحدود! .

وقبل الانجراف تهمس العجوز في أذن الأم، «احذري طوفان اليمن يا حناء الهند، وغيّبي الطفل»!

فترسله الأم إلى عمته القاطنة بعيداً عن الضرّ!

٢٢

يوشع ينظر

بكل براءة ذهبتُ إلى بيت عمتي.

مع أبنائها ذهبنا إلى الأحياء المجاورة بدراجاتنا، نطير بها، نركنها أحياناً لنصطاد الجنادب في الأحراج القريبة، نذهب للسباحة في بركة خزام بدراهم معدودة.

كنا نشاهد الأفلام في الليالي، أحببت أفلام السينما، (الدم الأول، التنمنيتر، آلن، سايبورغ، رجل المطر، خارج إفريقيا)، كانت السينما نافذة لنخرج من الحديث الممل عن حرب المنطقة، لم أتوقع أني كنت تحت مؤامرة الإبعاد.

ياااالصغار!

الفرس البيضاء أعادتني، عندما رأيتها تتخبط من أجل الحياة، بجوار الحديقة ونحن نمر يدفعنا الفضول لتجمع الناس،

والطفل بطبعه يحب الفضول، والفضول يجرحه أحياناً، وربما يقتله، فكانت الفرس تحمحم على الإسفلت، تنزف دماً من كل مكان، وصاحب التاكسي المحطم متضجر: «من الحمير التي يفلتونها في الطرق»!

لا أدري لم شعرت بفقد ينثال عليَّ.

أن تشعر في جزء من الثانية أنك كنت غافلاً، فيدمغك نيزك الحضور فجأة؛ فجأة تذكّرت قمر!

ذهبت إلى «السبيل» أقصد صاحبة السكر، فصدّني الغبار عند الولوج!

زحام،

ضجيج،

شاحنات،

صراخ،

عويل،

أناس يحملون الحقائب،

وآخرون ينزعون الأبواب والنوافذ،

بعضهم يربطون الأمتعة، لا يهمهم إن كانت مرتبة أم لا!

الفوضى خُلقت فجأة، نساء الحي اختلطن برجاله، خرجن كلهن، ولا يخرجن إلّا لأمر ذي بال، ومصيبة لا توارى!

ينزحون؛ إنهم ينزحون، كنت، أبحث عن سبب النزوح، هل صواريخ صدام بلغت المكان؟!

في طريقي إلى بيتنا، شاهدت، غريباً يدخل غرفة الحجة (عيشه)، دخلتُ على أمي التي كانت تخبز في المطبخ، تغيّر وجهها عندما رأتني!

ـ أمي مال الحي مقلوب كدا؟

ـ جيراننا اليمنه ح يرجعوا بلدهم!

ـ حتى الحجة عيشه؟

ـ . . .

ـ أمي في واحد غريب شفته داخل عند. .

ـ أبو قمر ح يشيل قمر معاه؟

ـ . . .

ـ شوف يا ولدي أبغاك تكون رجال، وتودي الخبز للجيران عشان ياكلوه في الطريق، عشان هم ماشين بعد المغرب.

ـ طيب.

ـ حبيب أمه. .

أحمل على ظهري الخبز، أوزّعه على الشاحنات المغادرة إلى الجنوب، رأيت الغريب خرج من عند الحجة (عيشه) فقصدت الغرفة، استرقت النظر، كانت الحجة تبكي، قمر كانت ترتب الأمتعة، عندما دهم ظلي الغرفة، أعطيت الحجة الخبز، قمر لم تكن تبكي، لم تحاول البكاء، قامت إلى الخبز وقضمته.

ـ طلال فين كنت؟

ـ عند عمتي!

ـ استغربت ما شفتك من يومين.

ـ قمر، تعرفي الفرس البيضاء اللي كنا نأكلها سكر؟

ـ أيوه في الحديقة.

ـ صدمتها سيارة تاكسي.

ـ تعورت؟!

ـ ترفس في الدم.

ـ . . .

ـ . . .

ـ مسكينة، مسكينة زي صحبتها!

ابتسمت ابتسامة غريبة.

ـ تعرف، نفسي في كيك قبل ما أروح!

ـ دحين؟

ـ أيوه، روح جيب الدراجة وتعال.

انطلقنا دون أن ننظر للوراء.

قمر، تنظر إلى كل مكان، تلتفت بسرعة، تريد أن تودّع كل شيء، تودّع أزقتنا الضيقة، حوانيتنا الصغيرة في سوق البخارية..

كنت أنظر إلى الشمس، كانت الشمس سريعة، ولم أكن يوشع بن نون حتى تقف، نريد أن نذهب في فضاء الكون فسحة طويلة لنعود منهكين، كانت تتشّبث بي.

في المخبز، أخبرت الخباز أنها راجعة لليمن، فلم يأخذ منا شيئاً، ورجعنا سريعاً.

الشمس لم تستجب لأمانينا الصغيرة، كنتُ أسمعها تبكي، تبكي من التصوّرات ربما، ما هي الصور التي جاءتك يا قمر ونحن فوق تلك الدراجة الصغيرة؟!

بم تفكرين؟

العجوز.

الكعك.

الخبز.

الفرس.

الحديقة.

المراجيح.

البحر.

الطائرات الورقية.

الانتظار.

وكانت آخر كلماتها:

ـ انتبه على جدتي يا طلو.

لم تودعني قمر!

ثم غابت الشمس، وسمعنا الهدير، وأنا منزوٍ في ركن قصيّ من الحوش.

اللغط والضجيج،

والسماء محمرة،

وصوت ناجي يلعلع وهو يشد الحبال،

وأمي تسحب حجابها الذي يخط في الأرض، وتلفه حول رأسها قبل أن تخرج الشارع،

تدفع الريالات للأطفال،

تبكي على الرضع من المسافات،

والنساء من الكدح الذي ينتظرهن والفاقة.

شعرت بأن العالم، كل العالم، كل البشر سوف يتركون المكان، خرجت من الباب، رأيت قمر متشبّثة بعباءة أمي تبكي، لأول مرة أراها تبكي!

ثم ركضتُ كما لم أركض من قبل، ولم أقف إلّا في الحديقة، عندها شاهدت الحصان الأسود يدور حول نفسه بضجر، هو بلا شك كان يشعر بفقدها.

ثم ذهبت إلى بيت عمتي عشاء أبكي.

سقطت من الإعياء، ونمت وشاهدت الطيور تهاجر، وكأني أوزرة سقطت ولم تلحق بهم.

وفي الصباح عدت إلى البيت.

الحارة خاوية على عروشها،

أبواب البيوت فاغرة،

نوافذها مدهوشة،

وأثاث مقذوف على وجهه،

وكتب مدرسية يتصفحها الريح.

فجأة عرفنا أن هناك حدوداً وفواصلَ بيننا، لقد رحل السواد الأعظم، ورحلت قمر، رحلت إلى تعز.

ذهبت إلى الديار

إلى الريحان والكادي وأزهار الجبال

إلى مدرجات اليمن الخضراء

سترعى الغنم

وتغني هناك.

سيؤويها الجمال، وأغاني أيوب طارش، وأوتار علوي والمآذن.

تركتني أتسكّع هنا، بعدما أخذت بيدي وعلّمتني النظر . .

السير في الطرقات.

والاقتراب من الحيوانات.

حب الخلق والمساكين.

والألوان.

والشغف بالكعك.

وعلّمتني وأنا لا زلت طفلاً معنى الفقد.

٢٣

حبّ مصلوب

رحيل قمر شلّني، ربما لأنها الأنثى الأكثر حضوراً في حياتي بعد أمي.

قمر كانت رفيقة خطواتي الأولى، ففي سنواتي الأولى لم أتذكّر إلّا الطين وكثرة الاستحمام، كنت أبكي من الاستحمام، كل الأطفال كانوا يبكون من الاستحمام ربما لأن الطفل يكتفي بطهر الباطن حتى وإن كان الظاهر يطفح بالقذارة، كانت أمي تسخن الماء بطريقة تقليدية، ثم تسكب عليه ماءً فاتراً من البرميل الأزرق المحشور في زاوية الحمام.

في أوقاتي البكر كنتُ أظن أن كل سقف وحائط به باب مخفي، كل باب يؤدي إلى عوالم أخرى مختلفة، وكانت أمي تمنعني من البابين اللذين في البيت، تمنعني حتى من الاقتراب؛ ممّا أثار فضولي لمعرفة أسرار الأبواب.

ههه؛

أذكر أن أول مخلوق شاهدته من وراء الباب قمر، قمر تكبرني قليلاً، بيضاء؛ تملك ابتسامه ساحرة، لها شعرٌ طويل، وترتدي ملابس زاهية تأكل بسكويت (توفي كرسب) كانت الشوكلاتة تلطخ وجهها، إن الطفولة التي لا تلطخ بالشوكلاتة تحرم من أجنحة الملائكة.

كان تمييزي محدوداً تلك الفترة؛ لكن قمر هي من بعث فيَّ معنى الجمال، حتى أصبحت أفرق بينه وبين القبح، إذ إني قبلها لم أكن أميّز إلّا بين القريب والغريب، وقمر لم تكن غريبة، وهي من أثار فضولي إلى العوالم التي خلف الأبواب، فطالما أن قمر أتت من خلف الأبواب، فهناك أشياء جميلة ومثيرة في الخارج.

قمر هي أول مخلوق أتى من العالم الخارجي ومد يده لي ليريني العالم، لهذا بكيت عندما شاهدت أغنية «A Whole New World».

قمر من علمني التجانس مع الطين، إن الطفل عندما يتمرّغ بالتراب ويلتّ الطين بيده، فهو حديث عهد بالأصل، إن الأمهات اللاتي يضربن أطفالهن بسبب العبث بالطين يغيب عنهن أن الأطفال يقومون بمحاكاة الخلق الأول؛ لهذا يبكي الطفل عندما يباشر جسده الماء، ولا يبكي عندما يمرغُ بالتراب، ويلوث يده بالطين، كنت أنا وقمر مَلَكين نلعب بالطين عند عتبات الدور.

كنتُ يوماً أعبث بقضيب من حديد، أحرث به زقاقنا الضيّق، حينها سمعت صوتاً يصدر من مكان ما، كان المصدر صندوقاً مثبتاً بأحد الجدران، توجهت للصندوق، قمر كانت بعيدة، وفي داخل الصندوق نور خافت، وبعض المخلوقات الملونة، والألوان تسحر الأطفال، ظننت أنها كائنات غريبة، أو لعب مركونة في داخل الصندوق، أدخلت القضيب حيث الألوان، حيث الصوت والموت في آن!

شعرت بصدمة، ثم توقف كل شيء!

تلك الصدمة الكهربائية كانت كفيلة بأن تقتل أجيالاً من البشرية، فكيف بطفل صغير؟!

أمي وبعض الجيران فوقي، كنت فاقداً الوعي لساعات، ثم نمت طويلاً بعد الحادثة.

لا أدري من أنقذني من الموت؟ الملائكة الذين تحفظونني من أمر الله أم قمر، ولم أسأل قمراً عن تلك الحادثة، ما أعرفه أن قمر كانت حاضرة في الفرح، وفي لحظات الموت، حتى إذا بلغنا النضج فرقتنا الحروب، فرقتنا ولا تزال لفظة الحب في شرنقتها مصلوبة في زاوية الروح.

بقيت مصلوبة لم ترتفع إلى روح قمر، ولم تركن إلى الأرض.

٢٤

قمل يقتات ..

فرخ الحمام السمين يتقلّب أمامي، فأخرقه بمنقاري، ثم أسمع جلبة قادمة من الأسفل!

أخذت الفرخ وطرت قبل وصول الخسيس إليَّ.

وفوق حنفية مرتفعة بالجوار أخذت أمزع جسد الفرخ، وأشاهد من مكاني ناجي يتفقد الطير، يعد الفراخ الناقصة، فيرغي ويزبد.

ورغم أن المدينة تعج بالفواسق، وخاصة الفئران السمينة؛ إلّا لا أستطيع أن أقاوم شهيتي عندما أتذكر شحوم الزغاليل اللذيذة، أمّا الكعك فإني افتقدته بعدما رحلت تلك الفتاة الجميلة قمر، فطلال لم يعد يذهب لذلك المكان بعد رحيلها، الطفل ليس لديه أصدقاء بعدما رحل كل من إدريس وقمر، لا يخرج إلّا نادراً، يقضي حاجات البيت، أو يشتري مجلة «ماجد»، وأحياناً يحمل طعاماً للحجة (عيشه).

لم يتغيّر شيء، سوى أنه اشترى دراجة أكبر من دراجته الأولى، وركن القديمة في فناء الدار.

حينا الذي نعيش فيه أصبح مثل مدينة ألعاب مهجورة، تبعث على الرعب أكثر من أي شيء آخر، إن المكان الذي كان يبعث البهجة إذا هجر يصبح مأوى للأشباح.

بعض الأحيان يذهب طلال إلى أبيه البحر، يشتري أكواز الذرة المشوية، يقضم واحداً منها، يرمي حبوب الذرة لي فوق الرصيف، ويلقي بعضها للسمك الذي يتعارك ليحوز عليها، ثم يمل الجلوس، لا يحب الجلوس في مكان واحد، يقلقه أن يبتعد عن أمه.

يقود دراجته، ينظر إلى الشاطئ، إلى الأطفال الصغار، إلى الطائرات الورقية، إلى البشر الذي يصيدون الأسماك، تؤلمه الذكرى، يرجع إلى حيّهم، فيرى الدكاكين المغلقة، والدور الخاوية، يدخل بيته بعد شعور بالوحشة يسيطر عليه، ينظر إلى رف والده يتذكّره، يسحب درج الدولاب فيرى كراسة رسمه وأثر إدريس عليها. أمّا قمر فلها أثر في كل شيء، على الجدران، وفي الغرف، وفي الفناء، والمطبخ، حتى باب الثلاجة لم يسلم من أثر لها وتصاوير!

يشعر بفقد موجع، يشعر بشيء محسوس، مخلوق مرعب يقتات على قلبه وروحه، يخرج من باب ويدخل من آخر، ليس لديه ما يفعل سوى التيه، بين برزخ الطفولة وما سواها، لا

يدري هل المشاعر التي تنتابه هي مشاعر كل البشر، أم هو الوحيد الذي خص بها دون غيره، يقترب من أمه يلقي جسده بجوارها، يضع رأسه المثقل بذكريات بائسة على فخذها.

أمه تُفلّي رأسه، لتتأكد من خلو رأس صغيرها من القمل، وهو يقلّب عينيه فيَّ وأنا فوق الحنفية المقابلة لبيتهم، لو كنت أجيد الكلام مثل بعض الرفاق لأخبرتها أن القمل في داخل جمجمته، وأن مخه مزرعة لبيض القلق.

٢٥

بجع ملوّث

لم تعد الحياة ملونة، فقدت التمتع بحواسي الخمس، السبيل أصبح مأوى للمدمنين والسكارى، الذين أخذوا يقصدون الدور الخاوية.

تتهاوى الدنيا أمام ناظري كأحجارنا السبعة؛ بعدما رحلت قمر، كنت أفكر فيها، وفي الطريق الذي تمشي به، أي جبل تعتليه الآن، كم عدد البهم الذي ترعاه؟!

العطلة طويلة الأمد بسبب الحرب، طالت وأصبحت عقولنا الصغيرة ملوثة بالحرب وآلات القتل، لم يسلم من الحرب أحد، حتى مخلوقات السماء والبحر. ما زلت أتذكر طائر البجع الذي كان يتخبط في بقعة الزيت الضخمة المتسعة التي كانت تطفو فوق مياه الخليج العربي، استحال ذلك البجع إلى سواد، يتخبط في مكانه، لا يستطيع الطيران، ولا الغوص، ولا الموت، تيه في البحر يعادل تيهنا في البر!

كنت أنظر إليه بحزن، أشاهد تلك المرأة الأميركية التي أخذته بعد نوبة بكاء، وأخذت تنظفه حتى عاد ريشه أبيضَ، كنت أفكّر، كنا أكثر بياضاً لكنّ الحرب شوّهتنا ولم نجد من يغسلنا، كنتُ أنظر لتلك المرأة التي تبكي على الطائر، وكنت أفكر في الأطفال الذين ماتوا بسبب الحرب، فالذين يرسلون هذه المرأة لتغسل الطيور، هم نفسهم من يرسلون طائراتهم ليقتلوا الأطفال!

في تلك الأثناء التي كنت أفكر فيها كانت طائرات الـ(F117) تقذف ملجأ العامرية في بغداد، ملجأ العامرية الذي يؤوي الآلاف من النساء والأطفال، أميركا التي تتباكى على طائر البجع الملوث بالنفط وتغسله، تقذف ملجأ العامرية بتعمّد لتغسل الملجأ بالدم، ثم يموت الإعلام، وتذبل الجرائد؛ ليخلد الحدث على الأوتار، يخلده ذلك النحيل نصير، لا يتكلم لأن الكلام مبتذل، إنما يعزف (حدث العامرية) على أوتار عوده ليبث المعاناة للبشر، ليكون النغم رسالة كونية، لنبكي على طفولتنا المهدرة في العامرية، طفولتنا المهدرة في كل البقاع.

ليست الحرب فقط؛ إن إيغال الطفولة في الفقر والجهل، هو تقرير لمذابحنا التي لا تنتهي أبداً.

لم أكن أعي التلوث الحقيقي حينها؛ ولكني كنتُ مدركاً أن قمر هي السلم والبياض.

٢٦

تراود الفتى..

ازداد طولي، أصبحت نحيلاً، وأصبح وجهي صلداً منحوتاً، وبدأت أرى بعض الشعيرات هنا وهناك، لكني لم أعِ بعد معنى الكبر، كنت غافلاً عن الشهوة والخطيئة، وكان بعضهم يتربص بي!

سعدية السوداء، تطلب مني سلك الفيديو ذات مساء، لم تأخذه مني عندما جلبته، بل طلبت مني الدخول إلى منزلها لتوصيلة بالتلفاز، ونحن في الحواري البائسة اعتدنا الدخول على البيوت دون إذن، مل دام لنا طفولة تشفع لنا، لكن العهر لا يحترم الطفولة، في الحواري لا نعي أن طفولتنا مستهدفة من قبل اللصوص، دخلت عند سعدية فأدخلتني غرفة صغيرة بجوار الباب، كان جهاز الفيديو متصلاً بالتلفاز والأسلاك متصلة بشكل سليم، فتحتُ التلفاز وقمتُ بتشغيل جهاز الفيديو بعدما تأكدت أن في قلبه شريطاً، فأخذ التلفاز يعرض صورة لم أستوعبها، لحم وأعضاء، شعر ومواد دبقة، كانت أعضاء تلج

في بعضها، عرفت أنها قذارة مقصودة، قصدت باب الغرفة فكان مغلقاً!

أخذ قلبي يضخ دماً مرعوباً، الشاشة لا تزال تعرض صوراً مقيتة، امرأة بيضاء تمص (. . .) رجل أسود بشبق، ثم يقذف في وجهها!

لم تكن هناك نافذة لكي أهرب منها، كنت أركل الباب وأصرخ، لكن لا يجيبني أحد!

أغلقت الجهاز، قررت أن أصمت حتى أرى ماذا سيحدث، بعد صمت طويل، سمعت المفتاح يلج الباب، كان فمي يعج بالشتائم القذرة، لكن أُصبت بالعيّ عندما رأيت سعدية عارية، عارية تقصدني، وتعرّي الكبار كان قذارة لا تُغتفر عند الصغار!

وكانت قذارتها غير مستوعبة أبداً!

حشرتني في ركن الغرفة، كانت نتنة، مدت يدها لكي تجردني من ملابسي!

قبضتُ على أصابعها أريد كسرها، لكن قوة الشهوة جعلتني حشرة أمامها لا حول لها!

قبضت على يدي وأخذت تمررها على فرجها الدبق!

ألقتني على الأرض، رفستها في صدرها الداعر، حاولت تقبيلي لكني تفانيت كي لا تفعل ذلك، وبعدما أصبحت تلهث من

التعب دفعتها بكل ما أوتيت من قوة فسقطت على مؤخرتها، فخرجت من الباب، ثم فتحتُ باب الشارع، وقبل أن أتجاوز العتبة قدت قميصي من دبر، بعدما سحبتُ نصف جسدها العاري إلى الشارع، فتمزّق القميص، وتدحرجت في الشارع يا لها من حيوانة!

كانت تتوارى بالباب وتقذف الشتائم والبصاق.

ـ يا منـ . .

ـ يا شر . . .

ـ أصلا أنت . . . لو رجال ما شردت . .

ـ شردت من ريحتك يا بنت الكلب . .

ـ أناأنظف من أمك يا حيوان . .

ـ روحي تروشي يا وسخة . .

ـ لو عندك . . . ما شردت . .

ـ أنا أكرم منك يا زبالة . .

ـ أصلا انت . . .

وهكذا أخذت تمطرني بوابل من الشتائم، وهكذا المرأة التي استمرأت الخطيئة، لا يطيب يومها إلّا حين تغرف بلسانها كمية هائلة من الشتائم القذرة.

كنتُ منهكاً، كانت ملابسي ممزقة، كان الوقت قريب المغرب،

قصدت البيت، سحبت سلك الباب وفتح، حاولت أن أدخل الحمّام دون أن تراني أمي، لكنها استقبلتني فصدّتها القذارة!

ـ ريحتك معفّنه!

ـ كنت ألعب كوره.

لم تقتنع.

قررنا الصمت.

كنت أتخوف في ذلك المساء أن تلازمني رائحة سعدية، لأن الروائح الخبيثة لا تزول إلّا بمشقة!

٢٧

دَنٌّ ينعق

هذا العفن لا يفارق هذه الصندقة، لا يدع مجالاً لأقتات على حواصل الفراخ، جسده الذي ينضح بالعرق لا يفارق المكان، يتجرّع من قارورته وهو متكئ، يرمقني بنظرة حقيرة، وأرمقه بأخرى، يهددني أحياناً، يقذفني فأتفادى بعض الأحذية والزجاج والحجارة، تلحقني لعناته بكرة وعشيّاً!

بالأمس قذف لي طلال جرذاً سميناً، كنت مستمتعاً بنزع أمعائه، وبينما كنت على ذلك الحال رأيت ظلاً فوقي، قفزت فإذا بعصا غليظة ترجّ المكان، طرت إلى شجرة النيم القريبة، ناجي الخبيث لا يجعلني أهنأ بعيش، أخذ الفأر ورمى به بين الجدران، أخذ يتوعدني بجمله الثقيلة، يهددني بالزجاجة التي بيده.

هو الآن ثمل، لا يستطيع حتى أن يقف على قدميه.

ـ شكلك ما لقيت من يروقك يا معفن.

يتوعد الخبيث، وهو لا يملك نفعاً ولا ضراً فأنعق في وجهه!

يحاول القيام لكنه يسقط، يسلط عليَّ نظرة بعينيه المحمرّتين، اللتين تقدحان شرراً.

ـ زمان كنت غافل يا وسخ حتى أكلت الزغاليل، لكن من اليوم راح أستقعد لك يا عفن . .

ههه، غافل!

يطلق الكلام جزافاً فقط، لا يدري أنه هو الغافل، ليس لديه من الأمر شيء، إنه يذهب كل صباح إلى البحر، يرمي جلبه إلى البحر، ويقضي وقته في غفلة لا متناهية.

أجمل أمر يصنعه عندما ينزع من خاصرة «السمسيمة» لحناً موجعاً، عندما يختلط بالصيادين ترّق طباعه، يساعدهم في إخراج السمك من الشباك، يعزف لهم على سلك السمسمية «يا عم يا جمال»، يعاكس الموج عند الغروب، يبكي «تهاني» التي لن ترجع أبداً، «تهاني» التي جعلت بينه وبين بنات حواء سداً منيعاً، لم ينهدم ليلتفت إلى أخرى، ولم تستطع فتاة أن ترقى فوق السد.

لم أتعاطف مع هذا القذر إلّا عندما مات صديقه «عادل» الذي دهس على طريق مكة القديم.

كان (يرفّع) بدراجته النارية قبل فجر أحد الأيام وهو ثمل، لم يدرِ أن الحفرة الصغيرة سوف تخل توازنه، ليرتطم بالأرض

ويتهشم رأسه على الإسفلت فيندلق دماغه لتأكله معاشر الغربان وتسمل عينيه!

عندما جاء الخبر ناجي خرج بفنيلته وسرواله الـ(شلش)، خرج دون نعل كالمجنون، خرج يركض يشق شوارع السبيل والقريات والنزلة يهيم على وجهه حتى وصل المحجر، يصرخ في أرجاء المستشفى باسم عادل، أخرجه حراس الأمن من المستشفى وجاءت الشرطة وقذفت به في التوقيف!

كان يبكي بجنون، في اليوم التالي عندما فاق، بكى كثيراً حتى لانت قلوب العسكر عليه فأطلقوه.

كان عادل يرقد في المقبرة، وجد قبره مبللاً، بكى صديقه ولم يقم من فوق قبره إلّا عشاء، رجع إلى البيت وهو في حالة رثة، استقبلته أمه بحضنها وبكى كثيراً بين يديها.

في صباح اليوم التالي، ذهب إلى سوق اليمنة. اشترى خيشة رطبة مليئة بالريحان والبعيثران والكادي والشيح، حملها على ظهره، قطع بالخيشة أزقة وشوارع، حتى سرت الرائحة في كل مكان، كان الناس يخرجون من البيوت، النساء من الشرفات يتتبعن الرائحة، وهو يبكي، يحث الخطى، والعين تحث الدمع، وفوق قبر عادل نثل ما في الخيش، وسنّم الورق والنباتات العطرية، ثم سكب ماء ورد عليها، ثم خرج من المقبرة، كان بنصف روح بعد تهاني، فمات عادل فشلع النصف الآخر، من يومها لم يعد يطلب ود الحياة.

تنظر إليه أمه كل يوم بحسرة، يعود ورائحته عطنة من السمك، ثم يصعد إلى صندقته ويعاقر قارورته يختلط العطن برائحة العرق فيستحيل إلى قذارة وعفن مؤذٍ جدّاً، أمه من ألحت عليه أن يسكر في الصندقة، ولا يخرج يؤذي عباد الله، تنظر إليه هذه الأم الصابرة، يترقرق الدمع كل مساء وهي تسمع ابنها يضحك ثم يبكي بمرارة، تدعو دائماً لابنها الآبق من الحياة، ترجو يوماً أن يجد دعاؤها ثقباً في السماء ليمرق منه، فتأتي الهداية إلى القابع في الصندقة.

أمّا هو فيجيد الهرب من الحياة بالشراب، لكنني لا أدري سبب تشبّثه بهذه الطيور، هل هو هوس أم استماتة لتضييق الرزق عليَّ؟!

يهمل كل شيء، كل أمر يتعلق بالحياة يهمله، إلّا هذه الصندقة، فهو حريص على غلق كل مداخلها حتى لا يسمح لي بالولوج إلى الرزق، بخيل بفرخ، بخيل حتى ببيضة فاسدة، أو بقايا طعام بائت.

ـ ما ح اكون ناجي إذا ما نتفت ريشك يا ملعون.

مسكين ابن آدم يقضي حياته في المكابرة وما أسهل إهانته، هذا المغفل يريد أن ينتف ريشي وهو مقصوم الظهر بضلع أعوج، ثم يتوعد الحقير، يتوعد غراباً لم يفعل شيئاً إلّا البحث عن رزقه، لكن هناك رضا أن تكون الحياة سجالاً.

٢٨

عندما يشوّهنا الكبر

كانت عطلة مطلقة، لم أعد أرغب في الخروج، أنزوي في البيت، أو أستلقي على ظهري في الحوش، أنظر إلى السماء استجدي المطر، كنت أنظر بين كل حين وآخر إلى تلك الكتب القديمة التي تركها أبي. لم أكن أتوقع أن أبدأ بقراءة «ألف ليلة وليلة§، كنت أبحث في الكتاب عن صور النساء المثيرة، ثم أقرأ عن أحداثها!

لم يكن هناك شيء أتسلّى، لم تعد الألعاب تلبي احتياجات المخلوق الذي بداخلي، أعجبني فيلم جلبه ناجي قبل أيام كان يتحدّث عن العهر والطهر، كان فيلم «سائق التاكسي»، من الأفلام التي جعلتني أتصالح مع واقعي، بعد تلك الحادثة مع سعدية ؛ ظننتُ أن كل النساء عاهرات إلّا أمي وقمر والحجة عيشة، كان «ترافيس بيكل» بطل الفيلم يريد أن يمحو الفساد من المدينة!

أتذكّر كلماته عندما كان يشاهد العهر في شوارع مدينة نيويورك،

ويرى الفساد المستشري فيها: «يوماً ما سيأتي مطر حقيقي ليجرف كل هذه القذارة». .

والقذارة هنا لم تكن على الأرصفة يا ترافيس، بل تسكن حتى في البيوت!

كانت أشياء تبدو غريبة تحدث معي، كنت أشعر أني كلّما مشيتُ في زقاق من أزقة المكان تغلق الأبواب والنوافذ في وجهي، كل خطوة تغلق باباً، كل خطوة تغلق نافذة، حتى شعرت أن كل شيء أصبح يسقط ما بعده كأحجار الضومنة (الدومينو)؛ التي بمجرد أن يسقط أحدها يسقط الذي يليه، كنت أسمع بعض الأحيان شتائم لأني نظرت إلى امرأة أو إلى فتاة!

الجارات اللاتي كن يقبلنني أصبحن يتحاشين ذلك، بعضهن يصافحنني من بعيد، إحدى الجارات كنت أدخل إلى بيتها إذا أرسلتني أمي لكي أوصل لها إداماً أو غرضاً، كنت أحمله لها داخل المنزل، إلى المطبخ أحياناً، في أحد الأيام بعثتني أمي لها بصندوق خضار، عندما قرعت الباب لم تفتح لي كعادتها، إنما أمرتني أن أضع الصندوق عند الباب وأذهب، كنت مصدوماً! كنت أشم جسدي لعلّ رائحتي نتنة بعد ظهور الشعر، كان طولي في ازدياد لافت، وكنت في مرحلة يبدو أني غير مرغوب بي بين الناس، نظراتهم تخترقني خاصة إذا اقتربت من أبنائهم وبناتهم!

أبتسم بمرارة عندما أتذكّر ليلى ابنة الجيران، ليلى التي كانت تتبضع في البقالة التي بجوارنا، فلم تستمتع بالتبضع لأن أحد الأشقياء قذف باب البقالة الزجاجي بحجر، فتهشم الزجاج ووقع على قدمها، كان الدم يشخب من ظاهر قدمها، قطع عروق القدم فنز الدم بشكل مفجع جدّاً!

حاولت أن أوقف الدم فلم أستطع، وضعنا شاشاً فغرق، ثم أخذتُ شريطاً ورقياً لاصقاً، وأصبحت ألفّه على قدمها وساقها، حتى توقف الدم، توقف الدم وتوقف البكاء.

أسندتها ثم سرت معها لكي أوصلها إلى منزلها.

في أثناء الطريق، جاء والدها وقبل أن أتلفظ بكلمة دوّت صفعة في وجهي سمعتُ لها طنيناً!

لم أستوعب من هول المفاجأة!

كنت مصدوماً، لأن أعظم الصفعات هي تلك التي تأتي وأنت تنتظر رد الجميل، فإذا الجميل يُدفع بإساءة فجّة، مثل أن تنتشل أحدهم من مأزق لعين فيخذلك في أمر تافه!

بعض الأولاد الذين شاهدوا الموقف سقطوا من الضحك، لم أخرج حرفاً، ليلى كانت تشعر بالخجل من تصرف والدها، لكنها لم تتحدّث هي الأخرى، قمت أترنح بين النبل واللؤم، كنت أفكّر في الطريق إلى البيت، أفكّر في أدنى سبب أستحق من أجله الصفع، فلم أجد سوى تشوّهات الكبر. دخلت بيتنا،

لم تكن أمي هناك، كانت تزور جاراتها. وفي زوايا بيتنا أحشر أنفي، أبحث عن رائحة الأبوة، كنت أريد أبي في تلك اللحظة، فلا يشعر الإنسان بلعنة اليتم إلّا عندما تُهان كرامته من قِبل الكبار، لم يكن أحد يستوعب صدمتي إلا أب حكيم، يُبرئ الجرح، ويلم شعث الفقد، وفي الحوش كنت أنظر إلى الله وأبكي بمرارة.

في المساء كانت أمي تنظر إليَّ، كانت تخيط ثوباً، عندما انتهت قطعت الخيط بأسنانها، ثم بدأت تحكي حكاية الشيخ الهندي والنمر، وأمي لا تحكي الحكايات عبثاً:

«عاش في قديم الزمان شيخ هندي اسمه «سادودانا».

وفي يوم من الأيام عزم الشيخ علي أن يسافر لزيارة أقاربه في مدينة «بنارس»، وبينما هو في الطريق سمع صوتاً مخيفاً كأنه الرعد، اقترب الشيخ من مصدر الصوت فرأى قفصاً كبيراً وبه نمر مسجون، فلمّا رآه النمر توسل إليه أن ينقذه لأن القفص آذاه، وأضعف جسده، وأنه يريد أن يشرب لأنه سيهلك من العطش، وعاهد الشيخ أنه سيرجع للقفص!

لكن «سادودانا» رفض لأنه لو أطلق سراحه فسيعرض نفسه للخطر.

فأخبره النمر أنه لن يضره ولن يفكّر في إيذائه؛ بل سيشكره على صنيعه، ولن ينساه طوال عمره.

فأشفق الشيخ على النمر، وفتح له باب القفص فأنقَضّ عليه النمر، وقال: الآن أبدأ بأكلك ثم أشرب!

فحاول الشيخ أن يثنيه عن عزمه فلم يفلح، فلمّا يئس قال له: أرجو ألّا تسرع بقتلي قبل أن تستشير في أمري ستة ممّن تلقاهم من المخلوقات، فإذا حسّنوا لك أن تأكلني بعدما أسديت إليك الجميل، فلن تخسر شيئاً، وحينئذٍ أموت غير آسف على شيء من هذه الدنيا.

فاستشارا أغلب المخلوقات وكلها رأت أن يأكله النمر!

أمّا المستشار الأخير، والذي جاء بعدما يئس الشيخ من الحياة، فكان الثعلب، فقصوا عليه ما حدث بينهما.

فقال الثعلب: لا أستطيع أن أحكم قبل أن أرى المكان الذي وقعت فيه هذه الأحداث، ولا بد من تمهلٍ وتريث وتفكير قبل أن أصدر حكمي، فلا أظلم أحداً منكما.

فعاد النمر والشيخ الهندي ومعهما الثعلب إلى القفص.

ثم قال الثعلب : الآن أخبرني أيُّها الشيخ الجليل أين كنت واقفاً؟

قال الشيخ: هنا أمام القفص.

ثم قال للنمر: وأنت؟

قال النمر: في داخل القفص.

قال الثعلب: لا أفهم كيف كنت في القفص؟

قال النمر: كنت داخل القفص، هكذا!

فدخل النمر القفص.

ثم قال الثعلب للشيخ: أخبرني هل كان القفص مفتوحاً أم مغلقاً؟

قال الشيخ: مغلقاً.

قال الثعلب: إذن أغلق القفص كما كان!

فأغلق الشيخ القفص!

ثم قال الثعلب للنمر: أيُّها الجاحد الذي لا يحفظ العهد، ولا يشكر للمعروف، ولا يثمر فيه الصنيع، تريد أن تقتل الشيخ بعدما أسدى لك معروفاً، ابقَ في قفصك حتى الموت!

ثم التفت إلى الشيخ الهندي وقال: أمّا أنت أيُّها الشيخ فسره في طريقك، ولا تصنع المعروف في غير أهله»!

٢٩

الـمــاء الأول

تعتريني حرارة قبل أن أنام، أشعر أن هناك شيئاً يريد أن ينفجر في داخلي، أستجدي النوم، تتكرر أمامي الصور، عرق سعدية أشمه قريباً مني، لم أستطع غسله أبداً.

وفي ليلة من الليالي الحارة، فجأة أصبحت أتسلّى بالدّلك!

انقلبت فجأة حيواناً داخل الغرفة، خلايا بدني أصبحت متوترة، ونزّ من جسدي عرق كعرق سعدية، عرق خبيث!

ولأول مرة أتماهى مع عضوي في طقس حيواني!

استمر الجلد لوقت طويل، حتى شعرتُ بنوع من الإغماء والولوج في شيء مجهول، ثم خرج مائي الأول، لم أتوقع أني سوف أدمن جلد عميرة بعد تلك الليلة، ثم نمت بعد سقوط.

عندما استيقظت وجدت اللُعاب يغرق مخدتي، وشعرت بالذنب، وكان أول شعور بالذنب يقرع قلبي!

استيقظت ظهراً كمذنب قد استمرأ الخطيئة دهراً، كان أول يوم لي بعدما هتكت عذرية الطفل الذي كنته.

كنتُ بحاجة لأن أذهب إلى شرم أبحر لكي أسبح أياماً، كان العرق الذي يندلق من جسدي كسموم الأفاعي يحرقني، كانت رائحته خبيثة ومنفرة، مررتُ بجوار أمي، كانت أمي تكتفي بالنظر لي، وأنا لم أكن بحاجة لكي أفكر.

ساعات وأنا تحت الماء لكي أشعر بالطهر، أمي تركتني أمكث أطول فترة في الحمّام حتى نفدت مياه الحنفية، وهكذا الذي يتصالح مع القذارة يطيل المكوث في مظانها!

كان من عادتي أن أخرج من الحمّام عارياً، أكتفي فقط بأن أستر عورتي بيدي وأركض إلى خزانة الملابس، كنت مصدوماً ذلك اليوم عندما شاهدت ملابسي معلقة بالباب!

كنت أشعر بخزي في داخلي، لبست ملابسي بتقزز، ثم خرجت من الحمّام.

رأيت أمي تصلّي.

تقدمت منها وهي ساجدة، لم أستطع أن أرتحلها مثل ما كنت أفعل قبل سنوات..

وضعت خدي بين كتفيها، كنت أشم رائحة البخور من شرشف صلاتها، كانت تطيل السجود من أجلي.

كنت أنصت لدعائها في السجود.

لم يكن هناك تعلقٌ دنيوي، كانت تدعو لي وتبكي.

تركتها لتفرغ من صلاتها، كان وجهها وضاءً يتلألأ، اقتربت منها ابتسمت، وأخذت المنشفة لتجفف شعري، تنظر لي وتبتسم، نظراتها تقرأني، إنها تعرف تفاصيلي بنظرة!

قالت:

ـ شوف يا طلال، دحين صرت كبير، تعرف ايه يعني صرت كبير؟

نكّست رأسي.

كانت هناك نملة تعبر من فوق السجادة، تمنيت حينها أن أكون نملة!

ـ ايه يعني يا ماما؟

ـ يعني انك صرت محاسب على كل شي تسويه في حياتك، دحين انت مسؤول عن كل أفعالك، مش انا ح احسبك، هو ح يحاسب، انت الآن مو محتاج مراقبة، خلاص صرت بني آدم تميز بين الخير والشر، بين الطيب والبطال.

كانت تتحدث أمي بكلمات ثقيلة كالجبال، كنت أنظر إلى الأرض، فرفعت رأسي بيديها :

ـ أنا ماح اكون معاك طوال حياتك، أنت حر في تصرفاتك.

ألقيت برأسي المبلل على صدرها، وبكيت بكاء المكبوت لسنوات.

٣٠

لـهـاث

أنساق إلى كل سبل الغواية التي تطرق نواقيس أيامي، أفتر أياماً لأعود إلى الانغماس في الخطيئة مرة أخرى!

بيوتنا المتحاشرة تعج بالخطايا، ونحن نمارس التلون في الطرقات، ندّعي الطُهر ونردد مع المآذن، ونقف في الصفوف لنفكّر في أقرب الطرق للرذيلة!

كل يوم يمر عليَّ أكره البشر وعفونتهم، وفي نفس الوقت أغرق في الخطايا والعهر، تغتالني الصور، وتسيطر عليَّ الشهوة، وأنا بين هداية أمي وضلال ناجي، بين أوراق الرياحين والفل في حوش أمي وبين النبابيت التي في السطح وتنتظر الاستواء والدم!

لم يعد هناك ما يبهج.

الفتاة التي كانت تبعث البهجة في المكان رحلت، فلم يستهوني

أي شيء بعدها.

الحدائق يابسة بائسة.

المراجيح أصبحت صدئة.

والكعك بلا طعم.

والأزقة التي كنا نلعب فيها أصبحت مجاري للصرف الصحي.

العجوز عيشة ماتت بعد رحيل قمر.

وناجي جعل من صندقته حانة صغيرة لرجل يضاجع قارورة.

أمي تصلي في باطن الدار، وهو يسكر فوقها!

تكثر الدعاء والتسبيح، وهو يسب ويلعن الدنيا والبشر. تجرني أمي إليها تارة، ويجذبني ناجي إليه تارات، وأنا مثل الغراب استهويت العفن، ولا زلت أنتظر غصن الزيتون.

أمّا السبيل، فهو مكان للخردة، الخردة التي تجتاح كل مكان، بواطن الدور وظواهرها.

الخردة تمثل حقيقة حالنا، تمثل تكدس خيباتنا وآمالنا الصدئة، نكدّسها كما نكدّس أخطاءنا، نهملها كما نهمل أرواحنا، لتصدر منها رائحة نتنة عندما يهطل عليها مطر الله، والمطر يطهر الأرواح النقية والأرض المباركة، لكنه لا يزيد الخردة إلّا

نتانة وفضحاً، وتستمر الحياة، وتملأ الخردة المدن والشوارع والجوامع والبيوت. لم يعد للبياض معنى، فالطهر والجمال، والحب والبراءة كلمات كنا نعيها عندما كنا ملائكة، ويصعُب أن نتحلّى بالطهر ونحن على الأرض. أنا لستُ بإدريس الذي ذهب إلى مكان عليٍّ ولست بعيسى الذي رفعه الله وكساه أوصاف الملائكة، فصار ملكاً سماوياً أرضياً.

أنا بشر مشوّه بالكبر والشهوة، يرجو العروج ويتخبط في الطين.

٣١

سقوط..

يسري الطاعون في المدينة الموبوءة، ينخر أدمغة الناس وأجسادهم، فينزفون فوق الأردية البيضاء حتى الموت.

الغربان الواجمة بسبب الشمس الملتهبة لا تدري أن البشر يكيدون لها كيداً.

الغراب الأعصم كان يتربص بصندّقة ناجي علّه أن ينال فرخاً، هو على يقين أنه لن يؤتى إلّا من طرف ناجي، لذا اكتفى بالتربص من بعد لينعم بالأمان؛ لكن الرصاصة التي نفذت منه، ونتفت بعض الريش قررت أمراً آخر.

طار عالياً!

اتجّه نحو القصر المهجور قاصداً الكوّة القديمة، بدأ يشعر بأن هناك ألـماً يخترقه، كان الدم يلوث المكان، لقد أصيب!

لم يدر ماذا حل به؟!

شاهد بالأسفل غراباً ميتاً فهبط إليه، كان رأسه مفلوقاً!

أخذ يبحث في الأرض ليواريه لكنه شعر بالوهن.

لم يصدق أنه سيموت عندما شاهد الدم يشخب منه.

إنه سيموت في مقتبل العمر والسواد.

نعق، ثم طار.

أراد أن يستقر في أعلى مكان في المنطقة، لكنه لم يجد إلّا البيوت المتحاشرة، والخردة التي تملأ الأسطح، الأسطح التي تعج بكل شيء، خردة، حبال غسيل، حنفيات صدئة تقطر، هوائيات عتيقة.

يعبر فوق حارة المظلوم، حيث القذارة والأنقاض والعفن، حيث التاريخ المهمل والبشر المشردون والغرف المستباحة، يهبط على أنقاض بيت خرب، يسيل دمه على حجر (منقبي) قديم بقدم الكون، يهشه بعض الصبية فيطير.

وفوق البغدادية يحلِّق، يحوم فوق أنقاض الكنيسة العتيقة، يقطر دمه على البناء، يتذكر المسيح، تستهويه فكرة العروج إلى السماء، كان ذلك حلماً منذ أصبح نذير شؤم، ونعيق حماقة.

يعرج إلى السماء، يريد أن يتعلق بالأسباب، أسباب السموات لعلّه ينجو!

يطير يطير، يخترق العنان، يصبح نقطة صغيرة سوداء في سماء الله، تصبح الأرض ممتزجة بأحبارها وألوانها، ثم تتوقف

المضغة السوداء التي في الداخل عن النبض.

يتوقف كل شيء.

يصبح كومة من الريش الأسود، يتقلّب بين السماء والأرض. عين واحدة مفتوحة، عين واحدة بدأت تلتقط المشهد الأخير، فتارة إلى السماء، وتارة إلى الأرض، يرى البر والمستنقعات الآسنة، وركام النفايات الذي يملأ ظاهر المدينة.

يرى البحر والشواطئ القذرة، والجرذان التي استحلّت المدينة.

يرى العمران،

البيوت الشعبية في أقصى الجنوب،

الأبراج العالية التي في أقصى الشمال. .

يشاهد الحفر و الجسور،

والزحام، والدخان الأسود فوق المدينة.

المشهد يختلط،

يصيبه الغبش،

تضيق الرؤية،

ينقطع الضوء.

وفي بحيرة الطين سقط، ابتلعته البحيرة، وعلى وجهها ترك لنا السواد أمواجه التي لا يلتفت إليها أحد، موجات محدودة، مثل

تلك التي تخلفها حصاة صغيرة إذا ألقيتْ في البحر، مثل آلاف الأشياء الحقيرة التي تسقط كل يوم في المستنقعات والبرك الآسنة، لكن الريشة البيضاء تطفو، البياض يريد أن يقرر أمراً آخر، إنه يحاول أن يصمد، أن يقاوم جاذبية الابتلاع، أن يكون بياضاً مستقلاً مقاوماً.

لكن الضعف مهيمن، وخاصة بعدما أصبح البياض في حكم الجماد، لا حول له ولا قوة، لذا صعدت على وجه الماء ريشة بيضاء كانت ريشته الوحيدة، ريشة مسيّرة وليست مخيّرة، خفيفة ترضخ للموج والهواء، بعدما كانت سمة تجعل العقول تحتار، تدهش الحاضر والبادي؛ هي الآن مجرد ريشة تائهة.

لقد مات ونزع منه الموت ريشته العصماء، فارقته دون أن يسجل علامة فارقة في سجل الموت، لقد مات غراباً مثل آلاف الغربان التعيسة، مات بغير ميزة، ريشته المنزوعة من السواد، تعلو وتهبط مع الموج، ستبقى في البحيرة الراكدة الملوثة بقذارة البشر، ستبقى على سطح الماء ساعة من زمن، إمّا أن تأخذها العوالق إلى الأسفل، إلى حيث القذارة المترسبة في القاع، أو ستذهب مع الموج نحو الظلمة، عندها لن يغني البياض من الظلام شيئاً.

تمت

١٥ أبريل ٢٠١١م

مَعين:

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور، ابن إياس.

ـ حياة الحيوان الكبرى، الدميري.

ـ قصص هندية، الكيلاني.

صدر للمؤلف:

ـ جانجي (رواية)، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت ٢٠٠٧م.

ـ نحو الجنوب (رواية)، طوى للنشر والإعلام، لندن ٢٠١٠م.



أطفال السبيل

بعض أطفال «السبيل» أيتام ولقطاء ومنبوذون، بعضهم لا آباء لهم ولا مأوى، بعضهم نتاج رجال يمارسون الجنس في الأزقة والطرقات أواخر الليل، يجدون قوارير يسكبون نزواتهم فيها بثمن بخس، لا يكلّفون أنفسهم إلّا مسح ذكورهم على الجدران بعد الانتهاء، دقائق سريعة ثم تتحمّل المرأة التي لا شجرة لها، أو الهاربة من بيت ملعون، عقوبة التسعة أشهر، إذا لم تجهض مبكرًا.
في «السبيل» تجد في كل حين مولوداً في بؤرة، أو برميل زبالة، أو عند عتبة بيت، أو أمام باب مسجد، أو عند ثلاجات مياه السبيل الموزعة في الشوارع، ثم يجدون صدوراً حانية، ولبن أمهات لا ينقطع.
«السبيل» يعج بالأطفال، بيض وسمر وسود، أطفال عراة عُزل، يزرعون المكان شقاةً وضحكاتٍ، لا يركضون إلّا في نحر الظهيرة، يشربون من مياه السُبل، ويتبولون في الطرقات، ينسبون إلى الأمهات، ولعنات تلحق الأب الأبق.




ISBN 978-9953-21-565-1